رواية

هشام ناجح

حديث الوجوه المائلة

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

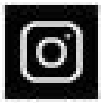

Almutawassit

إهداء

إلى نفسي التي كابدت العذابات.. لكنها قادرة على أن تولد في اللحظات الحاسمة.

إلى اللامكان

إلى اللغة

الوطن الحقيقي؛ بعيداً عن الحدود والحواجز المفتعلة والمصطنعة.

"لو كنا نعرف، أيها الرئيس، ما تقوله الحجارة، والأزهار، والمطر!

لعلها تنادي، تنادي، ونحن لا نسمع. متى سنفتح آذان الناس؟ متى سنفتح أعيننا لنرى؟ متى سنفتح الأذرع، لنعانق الجميع، الحجارة، والأزهار، والمطر، والبشر؟ ماذا تقول عن ذلك، أيها الرئيس؟ وكتبك، ما الذي تقوله؟"

"زوربا" نيكوس كازانتزاكي

"في أبعاد الفضاء، بحثت الكتابة، منذ البدء، عن الشاعرية التي ربما كانت تجمع الأشياء والكائنات في عالم يأخذ فيه الكل معنى".

إيمانويل لافيناس

"إغراء الموت يستوي مع نية الخلود، فلا وقت إلا للتأمل والنزوات، وليفنى الجسد في مهب ريح الأفول والزوال".

(هـ ن)

١) السهرة

الترومبيت اللعينة تزعق صادحة في أذني كطائر أبو عميرة، ينعق حسرة على انفلات هبة من مخالبه. أضواء النيون الفسفورية تُربك تصوراتي من داخل عيني وخارجها.

وضعتُ يدي على مؤخرة مونيكا، تلج الباب الزجاجي الهابط إلى الأسفل، عبر دهليز رخامي أخضر طويل، يشوبه لمعان سرابي رمادي، يزداد ضيقاً عند المخرج كأنبوب صرف. الصخب القادم يرشح إلينا من الصالة الكبيرة. تعذد الأصوات يُذكي في النفس البشرية معاشرة روحية خفاقة. مونيكا ترمقني بشبح ابتسامة متفلتة كقطرة ندى تلمع على برعم نبتة الذرة. النظرات الشهوانية، هي من تجعل معين القحب الجميل الأبدي لا ينضب، تضبط توازن العلاقة النفسية حين يموت الحنين. الآن أدرك لماذا كانت والدتي تُصدر نظرات قاحبة اتجاه المرحوم والدي. يقرصها هو الآخر بطرف عينه اليسرى، كاستجابة ندفع نحن الأبناء ثمنها بالنوم الباكر المقرون بالوعيد المائل إلى تفاهات ساذجة؛ كغسل الرجلين الفائحتين، أو الحرمان من الحلوى يوم السوق. لعلّ مونيكا اكتسبت هذه المنبهات من أصلها العربي لجهة الوالد احميدة السطيفي عن طريق العزق دشاس، أو من خلال دراسة الطبائع والسلوكيات النفسية الشرقية الناتجة عن المجتمعات الأبوية، كما تقول.

حاولتُ أن أدس لفتي بهمس رنان في ثنايا الخصلة الشهباء الجافة المنثورة على جانبها الأيسر. لن يُسعفني لساني، فهي طبيبتي النفسية، أكتفي بتمرير يدي الأخرى في وداعة. تقف أمامي تلال الخجل دائماً، يموت حينها الكلام في غضتي. تتدخل مونيكا، لتكسر شوكة القرف، فتقول:

- هذا التلعثم ناتج، يا حمامو، عن نقص في مادة السيروتونين.

تنتفخ مثانتي، وتُداهمني رغبة في التبوّل. عادة دأبتُ عليها كلّما دخلتُ مكاناً يعجّ بالصخب، والبرستيج، وربطات العنق، والسموكينغات والأحذية اللامعة المدببة من الأمام كخطم الكلب، وأثواب الموهير. تبدو النساء

كقطط السيامو الناعمة، وكذلك عندما تجتاحني لحظات الموسيقى الرنانة، التي تذكّر بالحبّ، وتقديم باقات الورد في خجل مصطنع.

أردتُ أن أحذ من قطرات البول الأخيرة. تُربكني نظرة كهل جميل، يُضاهي جماله أحلى نسوان بلدي، اللواتي خلقهنّ الله أقرب إلى الذكران. يرمق ذكري المفلطح على قفة رأسه. يُغمض عينيه، ويفتحهما، ربّما يسرح بخياله في المدى البعيد؛ شعر ناعم، فاحم، تتدلّى بعض الشعيرات مغطية الجانب الأيمن حذ الأذن. يمور برأسه في حركة إلى الوراء، يصعد الشعر المصفوف بعناية، ويعود إلى مكانه في خفّة مثيرة. عينان كحليتان شهوانيتان، كعيني عاهرة تعجّل بالشهوة، موقدة الهفة الميتة؛ العينان يعلوهما حاجبان نامصان، لُتفت شعيراتهما الزائدة بعناية فوق الوصف. فم محدودب الشفتين بعض الشيء مستعدّ لتلقّي قبلة في أيّ لحظة. جسم رنان ناشف، يتسع جهة الحوض. تزيده حركات الغنج وتمايله الشهواني مسحة من التعاطف معه، خاصة بعد اللعب برأس خنصره على جانب فمه. لم أتمالك نفسي، سرحتُ أنا الآخر في جغرافيته المنسابة مع طرحه. أحسستُ بميل خفي، حزك معه بذرة لوطيتي الدفينة. اهتديتُ إلى أن أغلّف ذكري بورق لين، أحمله في جيبي للغرض نفسه، ولغرض آخر عندما يتقاطر بأشياء أخرى. اللعنة على العالم في هذه اللحظة، نسيتُ الورق اللين في سيارة مونيكا. أدخلتُ يدي في جيبي مفتشاً عن ورقة ما. أجد رسالة والدتي، صادفتُها في علبة رسائلي. تملّكتني حيرة بالغة، فعدلتُ عن لفّ ذكري، دسستُ رسالة والدتي في جيبي، وهستيريا من الضحك تنتابني من شذة الكلمات البذيئة. الرسالة بخطّ أخي الصغير. لم أفرز الكلمات إلا بصعوبة بالغة. أعتقد أنه بالغ في تطريز رسالة والدتي أكثر مما طالبتُ به، وكان كريماً في جرجرة أخيه العاق والأهبل، الذي كانت الجراء تلحس مؤخرته وهو نائم دون أن يدري.

صاحب الترومبيت ما يزال يتماوج في حركات رشيقة، تخرج من جسده تبعاً للزخرفات الرخيمة الرقيقة. الكهل الجميل يبعث بقبلة حازة في الهواء، أتصيدها على عجل. أومأتُ بإدخالها في الجهة اليسرى من صدري. مال بعينيه إلى الخلف منتشياً بمناوراته. مونيكا مشغولة كعادتها في حديثها عن شجاعة الباسك المقرونة منذ الأزل بالرغبة في عشق المجد والخزية، رغم أنها نتاج لزواج مختلط، الغلبة جلية فيها للغرب أكثر من الشرق على ما يبدو. تذكّرني دائماً بالدور الفعّال الذي لعبه عرب الأندلس في مؤازرة الباسك والانتصار على جيش شارلمان

Charlemagne. أمها تشيشيلي تحرص ملياً على أن يمور دم ابنتها بفيروس الباسك. الشال المنثور بخطوط متوازية حمراء، وبيضاء، وخضراء، لا يفارق عنقها، تدافع عن حركة إيتا، ثعذ وتحصي العمليات المفخخة، رافعة يدها وأصابعها مثنية. لا تعترف إلا بحزب باتاسونا، أما باقي الأحزاب، فهي عميلة في نظرها. تزخ بحكايات، أصبحتْ أحفظها عن ظهر قلب، وتختمها بصيحة بصوتها الأخن:

"تعيش ١٩٧٩ سنة الوحدة".

تزم مونيكا شفتيها، كأنها أدركت حجم انشغالها عني، تنظر من تحت نظارتها، تجذبني من أصابعي، لنرقص معاً. أستجيب لرغبتها. الصالة تزداد حرارة وانشراحاً. مدير الصالة يرفع كأسه في وجه الجميع، ويصيح بأعلى صوته:

"في صحة العشق المتبادل مع موج سان سيباستيان".

الكهل المخنث يرصدني بعينيه اللتين فقدتا بريقهما الأخاذ، واكتستا باحمرار متعب. دلق كأس الفودكا العائم في الحامض دفعة واحدة في جوفه، جاذباً بأساريره إلى الخلف، كأنه يشرب سماً. أحسستُ به يلومني على خيانتي بالرقص مع مونيكا. ألف بمونيكا، مشيراً له بأصابع يدي الموضوعة على خاصرتها. تهمس مونيكا في أذني:

"غيرة الرجل على الرجل أشد وقعاً من الغيرة المعتادة بين الرجل والمرأة".

أحسستُ بكلامها كنصال حادة تخترق جسدي. كنتُ أخالها غير مهتمة. تصلني رائحة عطرها المنقوعة ببعض الفزق الخفيف المشوب بمنبه خفي، يحزك الهفة، أحب هذا النوع من الرائحة. رائحة اللحم البشري المغرية. كنتُ أغرس أنفي في إبطها عقب الرعشة الكبرى كإيذان على حبي لها غير الناقص، حتى رائحة فرجها لم تُقلّل من هذا الهوس.

أدخلتُ أسفلها بين فخذي حتى تلامس المفرق. رقصة اللمبادا اللعينة تهيجني، وتمزق أحشائي. أنصاع لحركاتها المتداخلة، أدفعها بيدي، وأميد بها في حركة رشيقة، وأضعها في شبه نصف دائرة. أكاد أرمق فمها واضعاً صدري على حلمتي نهديها الصاحيتين كرمانتين، أعدل عن لثمها، وأرفعها من جديد حتى تنتصب قامتها. أرومها من الخلف كمتزحلق على الجليد بعد أن ضممتُ بيدي معاً على خصرها. تدفع بمؤخرتها صوبي، ونلف في

وضع دائري مثير للشهوة، حينها تعالت التصفيقات وسط شطحات الأضواء الفوسفورية:

برافو.. برافو.

انتهت جولات الموسيقى الصاخبة. الليل يجاوز منتصفه. الدعوة ملحة إلى سماع موسيقى هادئة، تُعيد ترتيب الأفكار من جديد، وتساعد على فتح باب النقاش والتباهي بالمكتسبات، والأرباح، والأدوية، والمهدئات، والسفريات إلى إفريقيا الحازة، كأن إفريقيا لا تحقق سوى الرغبات البدائية الدفينة. نقاشات تُدرج حسب الرؤية والاهتمام. صاحب البيانو يتماوج بأصابعه في وداعة كوداعة الحمام. شعره الأشيب يؤكد أنه قضى عمره في إدراك الجوهر الحقيقي لربط أشكال الحياة كلها بالموسيقى. هكذا خمنت، فهي مجزد انطباعات تلازمني لدرجة أختار الأسماء التي تتماشى مع بنية وطبيعة كل شخص، قد أختار له اسم الغزواني، ويصبح دكاليا دون أن يدري. تصدق ذاكرتي هذا الاسم، وتتعامل معه إلى ما لا نهاية. يحاول الغزواني أن يُظهر براعته، ينتقل من مقام إلى مقام. إني أعلم ملياً هذه المعزوفة، لكنها تغيب عن ذهني، أعصر مخي، وأدندن تبعاً له حتى أتذكرها. تتدخل مونيكا كأنها أدركت رغبتي التائهة، فتقول:

- أوه، سيمفونية كسارة البندق لتشايكوفسكي، تذكرني بأحلامي الطفولية. كنت أحس حينها الطفلة كلارا وهي تهشم رؤوس الفئران، عندما يحاولون إتلاف لعبها وهداياها.

رمقها الطبيب البيروفي السبعيني فركاس طابروس الجالس على يسارها بنظرة هائمة. كمن عثر على شيء، ضاع منه منذ أمد بعيد، رادفاً:

ـــ لم أكن أعرف أنك تتذوقين مكامن الجمال لتشايكوفسكي، يا مونيكا؟

فرك كأس الويسكي بين يديه، محزكاً رأسه، وفاتحاً عينيه قدر الإمكان:

ـــ مع ذلك، أفضل سيمفونية بحيرة البجع.

تنحنح بالكرسي حاكاً بمؤخرته:

ـــ أووه لا، يا لك من شقية! زحزحت حنيني إلى أيام الشباب وأيام الجري وراء حركة "مير" في أحراش وغابات البيرو.

كنت حينها أود أن أتدخل، لأعبر عن موقفي، وأصرخ في وجههما،

وأقول:

"الإنسان ناي الله، والعود أصل الحكمة. كم كان موزار وبيتهوفن وباخ والبقية تعساء حين أغفلوا الناي، على وجه الخصوص. إن آدم أدرك حجم الأنوجاد، وصنع ناياً للاستدلال على الطريق حتى النهاية. آه، لو أدركنا عمق الميثولوجيا، لأزحنا الغبار عن الشرق اللعين".

هدهدتني مونيكا من كتفي، أعود من سفرتي، وأدرك حماقة ما كنت سأتفوه به، لحظتها ستشك مونيكا أن حالة الهلاوس السمعية والبصرية انتابتني مرة أخرى.

سحابة صمت خيمت على الأرجاء بعد نهاية صاحب البيانو، معلناً سدادة النهاية برئة تنخفض تدريجياً، إلى أن تموت نهائياً في حلق البيانو. وضع فركاس طابروس الكأس من يده على المائدة البيضوية الشكل، وشرع في التصفيق، يُصاب الجميع بالعدوى. يقف صاحب البيانو، وينحني واضعاً يده على صدره في امتنان، تفرضه دواعي الفن والبروز. لم يعد شعره منساباً، تلخبط بعض الشيء من فرط حركاته الماثلة. تزحزح فركاس من مكانه بعد أن أعاد حمل الكأس، يرقب الكأس من الداخل، وأصدر سعالاً خفيفاً كدعوة خفية إلى الانتباه إليه، رفع عينيه، ومسح الكل بنظرة سريعة، وفي الأخير، يركز نظره على مونيكا:

ـــ في الحقيقة، لا يمكن أن نتحدث عن الفن الروسي دون إغفال الفلسفة الألمانية ومكتسباتها. مهما حاولنا أن ندرك روعة الفن أو الأدب الروسي، سننبهر بالدور الذي لعبته ألمانيا في تعبيد الطريق نحو الكمال والجمال في هذا الأدب والفن.

وقف فركاس في حركة مثكناً على المائدة دون أن يرغب في معرفة وجهة نظرنا، أو كأنه يترك باب النقاش مفتوحاً، لنعجل بلقاء آخر. قعقعة الكرسي تؤكد هذا الطرح اللطيف. وقف الجميع. العيون وحدها من أعلنت عن الوداع. مونيكا أدخلت يدها في ذراعي، نلج الدهليز الرخامي، هذه المرة ينتابنا إحساس مخالف. نُسرع الخطو. أسمع أطيط حذاء وراني يعجل الخطو. وضعت في يدي ورقة، دعكتها في جيبي. تحسست رسالة والدتي. هستيريا من الضحك تهاجمني. تُصاب مونيكا بعدوى الضحك دون أن تعرف السبب. كلما حاولت أن تستفسرني عن السبب، يزداد حجم الهستيريا، حتى لم أعد قادراً على الكلام، أو الوقوف من شدة ألم بطني.

لبحر سان سيباستيان صخب أليف، يبشر بأحاديث مونولوغية خارجية. هكذا أتخيله يحدث نفسه. دون أن أسأل مونيكا. أعلم أنها ترغب في قضاء ما تبقى من الليل في عيادتها بيايون الباسك الآخر برؤية فرنسية، البعيد بساعة تقريباً. لا تستمتع بالحب واللذة إلا في مكان عملها. لا تشبع من القُبل واللَّحس، ولا تُدرك حقيقة التقرير الجنسي المتكامل إلا على مكتبها، فتقول:

ـــ التوافق الحقيقي لا يحتاج إلى أسرّة ناعمة، وبيت مخصوص للدّغك. المكتب وجهتي في التعبير عن صدق مشاعري، تجاه لحظة، تقف فيها أنفاس العالم.

كنتُ أشك في سلامة سلوكات مونيكا على الدوام، كنتُ على يقين أن الاحتكاك بطبيعة المرضى قد يولّد لديها أحاسيس، تنمّ عن التأثر. إن معظم الأطباء النفسانيين هم عرضة كذلك للأمراض السيكوباتية. قد تتّخذ قراراً، وتعدل عنه في الوقت نفسه، مُدعية بحجج متقابلة ومناقضة. هاتان العظْمة والقيمة المنهزمتان تُكوّنهما نحن عن أطبائنا. تتضح الحقيقة أكثر عند الرغبات الطافحة بالاندفاعات والميولات؛ ترغب في أن أجامعها على ملفّات المرضى، تفردها فوق المكتب في تتال من الألف إلى الياء، بالرغم من وجود الحاسوب الذي يُيسّر سُبُل العمل. تجذبني من كتفي مطالبة بالغوص ملياً في بحيرة إحساسها. هذا الفونطازم اللعين هو من يحذد العصائر والتصوّرات، حينها يعبرني فرويد، فأشكره شكراً جزيلاً على طرحه النفسي المعقول. أفكّر أن أعلّق صورته في البيت للذكرى؛ بوجهه النافر ذي اللحية الشوكية التي وخطها الشيب، وعينيه المزمجرتين بإحساس يحذده الهو أكثر من الأنا والأنا الأعلى، لأذكر الآخر بلحظة التسامي التي يلبسها الفرد، أقصد مونيكا، ويكشف عن حقيقته مع بلوغ ذروة اللذّة، حينها تنمحي هذه الرغبة، ألا يستحقّ سيجموند هذه الذكرى؟

زرعتْ مونيكا على ثغرها ابتسامة باردة، لتعود صورة العظْمة المنهزمة من جديد، وأعود أنا إلى سذاجة الفعل الإنساني المتغابي بين المهانة والتمزد.

٢) المكتب

القمر يمضي معنا في تجاه بايون، تحجبه بين الفينة والأخرى سحابة مشاكسة، ترغب في أن تُزعزع جماله الكمالي بفعل الغيرة. الطُرق الساحلية فرصة لتهويمات وتوهمات ناعمة، يرسلها المخ بين التعتعة والروائح الطازجة للبحر، يحكي عن غربه، فقد تخلّى عن لباسه الطويل من الأمواج في هذه الساعات، ولبس سرواله القصير المخيط بمكينة الجزر. تبدو الصخور الناتئة بألوانها الكلسية مفعمة بعشق منخور، تحكي غطرسة هذا الأخضر اللامتناهي. رائحة الطحالب النفّاذة تعبر المسام. داهمت مونيكا نوبة عطاس، تضطر إلى رفع زجاج الباب، وتعويض هذه السكينة بتقليب راديو السيارة. أصوات مخنوقة تمز بسرعة، لم تُكتب لها الحياة، سرعان ما تموت كتلك الأعاصير الصغيرة التي تحدث في بلدتي وقت الظهيرة القائظة، حين يئن الحجر، ويبكي الشجر، ويطير الطائر، ويسقط على طيزه، وأنا عائد من سقاية البهائم في رحلة إيلاف قريش، صاعداً عقبة فدان الحفرة. دخان الكشينة يقلّل من ضجري، عندما تتناسل خيوطه مشكّلة لوحة بديعة في السماء. أقلّل من لطم البهائم بعصاي، واضعاً يدي على الظهر المحدودب لبقرتنا الدبساء المتخلّفة دائماً، فتذوب الضغائن. ترخي البهائم آذانها عندما ندخل في السلم كافة. لم أعد أسمع سوى صوت الأظلاف يشاكس الحز الرهيب، فنسبح وسط الغبار المتطاير في الوجهات كلها.

استفزت الموجة على ذبذبات فرانس أنتير. يجرفني نقاش حاد حول تراجع مستوى التعليم بفرنسا، فينهي ذكرياتي القاحلة.

أومأت مونيكا برأسها عندما اتفقت مع أحد المتدخلين، يرى أن المشكل يكمن في غياب الفلاسفة الذين كانوا دائماً يبتكرون المناهج التي تُحرر من عبودية الخوف نحو التحصيل. يتشعّب الحوار ملياً نحو العراقيل والحلول. يعقّب أحدهم باقتراح، يبدو موضوعياً إلى حدّ ما، فيقول:

"علينا أن نضع في أذهاننا فكرة الهوية الفرنسية المرتبطة باللغة. إننا بالإكثار من المواد في المرحلة الابتدائية، نعمل على ضياع اللغة، وإذا

ضاعت اللغة، ستضيع معها الهوية حتماً، لهذا يجب أن نركز على الإلمام باللغة وحدها في الأقسام الصغرى، للحفاظ على تاريخنا الحقيقي، وعدم تبريصه".

سرح ذهني حينها في التاريخ المصاب باليرص. تبدو فكرة شاذة، لكنها تصلح أن تُطرح للنقاش مع فركاس طابروس، عندما نخلص إلى قناعته حول دور الفلسفة الألمانية في تحديد دعامة الأدب والفن بروسيا.

داست مونيكا على الكابح قرب الفاصل بين نهر لادور ونهر لانيف. تمثال لابيجيري يحمل شارة الحراسة مسنونة النبال، يمزج بين الراهب والإله طلاسا، هذا الامتزاج والتماهي بين الحقيقة والخيال، بين الإنسانية والألوهية، نجح في غفوة منا، فنراهن على تصديق الخيال وتحجيم الحقيقة، لأنها مخيفة وباعثة على سفك الأحلام. الضوء الساطع على الماء يخلق حالة إشعاع مع الشراب.

خفضت مونيكا من صوت الراديو. تتكئ على دائرة المقود كأنها ترغب في النوم بعد أن أدخلت وجهها بين ذراعيها، أسمع هسيس كلامها يأتيني من تحت:

ـــ التاريخ هو نبات الشوك وسط حقل مخضر، لهذا الكل يحاول أن يتحاشى هذا الشوك، ويسفيه إلى حقل جاره.

انتابتني نوبة من الفواق، يبدو أن مشكل الحاجب الحاجز تفاقم هذه الأيام بفعل الشرب. أعتقد أنني أدخل إلى عوالم، أشك أنني سأجاريها، أنا القادم من أدب الصحراء أقصد: المتنبي والمنفلوطي ومحمد زفزاف ومحمد عابد الجابري. لن يكون هذا الأدب درعاً واقياً تجاه سيوف الأفكار الحادة. تحس أنهم يتكلّمون كالأنبياء. لا يوجد اجترار الفكرة الواحدة على مدى الأعوام، تدفعك إلى الرتابة والسخف كالشرق. الشرق موضع الشيء الواحد، أينما ولّيت وجهك تلطمك صورة الزعيم الأوحد، ساحة التحرير الواحدة، المسلّة الواحدة، الدستور الواحد، الطرح الأيديولوجي الواحد.

بايون تبدو هادئة على مشارف الفجر، كأنها لم تعرف مؤامرات ودسائس تاريخية أبداً. بهجة الصمت تُلهمني أن أستأنس بحفيف الأشجار في عذوبة كأنني ألمس جلد مونيكا الناعم. أعلم أن فأر الشهوة يلمع في عينيها، لم ترغب في تحقيق طلبي؛ رمي حجرتين كالمعتاد في البحيرة التي يلتقي عندها لادور ولانيف، وسماع نقرة الخرير بغبطة طفولية.

عيناها تُعجلان بالشهوة. الكلب كرينكا يخرج من بيته الصغير السكسوني، يتعلّق بمونيكا، يلعق وجهها، يسبقنا إلى الدخول، يقف بالقرب من الثلاجة في غرفة الراحة المقفلة دائماً، حتى لا تكسر الجو العام للعيادة. يرغب في الحليب الذي يعشقه حد الموت. مونيكا تحدثه وتسأله كيف كان يومه، يُبصبص بذيله كأنه يدرك ما ترغب فيه، يُصدر نباحاً أليفاً، ويشرع في لعق الحليب بصوت يبعث على النشوة. أفكر أن ألعق مثله حانماً بلساني، سرعان ما أتقزز من هذه الرغبة، وتموت التخيلات والميولات كما تموت موجة انبعثت فجأة.

روائح العيادة لا تموت أبداً. رائحة الدواء تجثم على المكان. مكان يساعد على الشعور الإيجابي، على شاكلة المعابد الصغيرة. أيقونات من مختلف دول العالم. أباجورة بنية منحوتة على شاكلة بوذا، يرقب الأفق اللامتناهي بعينين ضيقتين، وشعيرات منثورة على ذقنه، تكشف عن روحانية الشرق الأقصى، التي لا تموت كالفوتاما، والسمانا، والبراهما، يلمع على رأسه مصباح أحمر، وفي الجهة الأخرى، مصطبة منحدرة، عليها مسجد صغير بالأبيض والأخضر، يتوسطه راديو وساعة تنقر كنقر الغراب. وحين يرق قلب مونيكا صوب والدها احميدة السطيفي، تستمع إلى الأذان الشرقي ببخة رقيقة رخيمة، أعتقد أنها بخة المدينة المنورة. يقابله في أقصى اليمين أيقونة العذراء، تمسح على وجه المسيح ساعة الكشف، وأخرى يبدو المسيح مضرجاً في دمائه مشدوداً إلى الصليب فغمى عليه؛ الرأس المتدلي إلى وسط الصدر، تحول الحبال المشدودة عليه وعلى الصليب بقوة دون سقوطه. الأريكة تزين مدخل الباب، وهي عبارة عن قاعة الانتظار، تفصل بين الأريكة الكبيرة والصغيرة، جرار طينية، عليها أزهار التوليب الحمراء، أمام الأريكتين طاولة، عليها مجلات باري ماتش وجرائد جهوية، عليها صور وأسماء شهداء القضية الباسكية، ومجلات للبحوث، تكشف عن آخر المستجدات في الطب النفسي والعقلي. وفوق باب المكتب؛ الصورة الكبيرة الملفوفة بإطار مذهب لمونيكا، تناقش أطروحتها بباريس، بلباس الحكمة والقيمة وجني ثمار الأصياف.

أفردت مونيكا الملفات على مكتبها. يشدني اسم عربي في حرف الميم: محفد حسوني. تُطلق مونيكا أغنية لدليدا، تدخل في محاورة مع آلان دولون. يلخ في أن الحب يجثم على قلبه كأنه يراها أول مزة. يلخ، يلخ، لا يفضل سوى تكرار كلمات. كلمات، ولا يفضل في أذني سوى الصوت الصاخب لدليدا وهي تتمسك برفضها وراء الكلمات. أنفر من هذه الأغاني

كما ينفر الفأر من القط الشرس. لا أميل إلى الانجذاب الرومانسي، هو مدعاة للانخراط في الجانب الأنثوي الهش، ثفرط في سماع المناجاة والسخافات وحملقات بعيون ناعسة مشوبة ببلاهة مقززة، قرب مكان هادئ يلامس الريح. ويصبح للقمر والشمس دور آخر عوض النور والدفء، حينها ثدرك الشمس القمر، والليل يسبق النهار، والأفلاك تسبح إلا في العيون فقط. لم أصرح بهذه الاعترافات لمونيكا، فلتختبر طبها وغطفتها المنهزمة في مفاتيح الشخوص المسربلة بالألغاز، التي لا تعلم حجمها سوى الخزينة الليبيدية.

خرجت مونيكا في كامل زينتها. أعادت ترتيب شعرها بتسريحة معقوصة على شكل ربطة الحصان. يتناثر مكياجها الأحمر القاني على شفتيها ككرزة تتوسط قشدة بيضاء. تذكرني بأن الرجال يأكلون كيلوغراماً سنوياً من المكياج. أجبتها بنحنحة من رأسي وشبح ابتسامة ملفوف بتهكم خفيف. لا وقت لدينا للخوض في هذه المواضيع البائدة. هذا الغرب اللعين مصاب بالتخمة حد العمى، ماذا ستقول مونيكا إذا أكدت لها أن دول العالم تصرف ٢٠٠مليون دولار على تربية الكلاب والقطط وبعض الحيوانات المفترسة. مزت خريطة الشرق أمامي دفعة واحدة بتشف مترذل، استقرت خلية فكري على اليمن. أحياناً تحزكنا منبهات، تنتهي باستجابات بعيدة كل البعد عن طبيعة اللحظات. كان شيئي قد بدأ يفقد حيويته.

عدتُ إلى وضعي الطبيعي ناسياً اليمن السعيد. غزقُ الشهوة ينهمر منا. ملف محقد حشوني اكتسى بغزق خفيف، وكرمشة على حوافه.

٢) كرينكا

شمس الصباح ابتسمت في وجه النافذة المقابلة للأريكة بوحشية. أفضل انتهالك والنوم عليها بعد أن أشبع من مونيكا. لا أحب المرأة التي تعشق النوم بجانبي، وترسل أنفاسها صوبي. أقوم برغبة كسلى. مثانتي منتفخة إلى الحد الذي لا يسمح أن أنام رغم التحايل عليها بالتناسي. الشراب اللعين امتص الماء كله في جسمي، أقوم جاف الحلق. جزبث أن أشرب وأتبول في الوقت نفسه. القطرات الأخيرة أحسها هابطة على فخذي ساخنة عذبة. أطلّ من النافذة. الكلب كرينكا يضع خطمه جانباً على العشب، وذكره الأحمر الناعم يطلّ هذا الصباح بين كراعيه، ربما يسرح بخياله في عالمه الكلبي اللامتناهي، قد يرى نفسه يضاجع كلبة جارنا الهولندي البدين الفاتنة. ليس بوسع الإنسان والحيوان، على حد سواء، تجنب سياقات اللذة. وهي أهم من اللذة في حد ذاتها. التصورات تلهم الهفة أكثر. الصور تترادف من خزينة المخ كشلال. مضاجعة الخيال نشوة، ترهي بها البعد المقرور، قد تُدخل يدك في محسانك، وتتحسس بلطف زر الوجود، واضعاً يد النهاية على أنفك، تلك رائحة الخلق الأول.

دخلت غرفة راحة مونيكا، أجدها متكومة كقطة تلامس الدفء. أحضر قهوتي؛ سر وجود الصباحات السوية الخالية من العقد رفقة سيجارة كمال بدون فيلتر، أتتبع الدخان بأنفاسي المتقطعة، يسلك مجرى التيار نحو خيوط الشمس، وأرتشف جرعة كبيرة من القهوة مقبراً النشوة في شعب تنفسي الجافة. لم أستطع مقاومة رغبتي الجارفة في الاطلاع على ملف محمد حسوني. أدركت منذ الوهلة الأولى أن الاسم مغربي صرف، لكن، لم يسقط على البال، أن محفداً من نواحي بلدتي، أهله يتسوقون السوق الأسبوعي لزاوية سيدي سماعين كل يوم اثنين. ساورني فرح لذيذ ومعاشرة روحية مبهمة، وكونت صورة حية بملامح صارمة؛ شارب مبروم على شاكلة شوارب أهلي، رمز الرجولة والذكورة، إذا اشتد الخصام بين اثنين عوض أن يقسم بالله، يقسم بشاربه الكث مهدداً بحلقه، ويصبح معزة للرجال في هذا البلد. الوجه الغليظ المفلطح. العينان العسليتان. الكتفان العريضتا المنكبين اللتان تصلحان للفلاحة الشاقة، وترعمان البهائم

على الانصياع. الأقدام التي تبلغ حدّ الرّقم الأخير (٤٥) من الأحذية البلاستيكية العطنة، تشفها عن بُعد كحمار ميت. أحرقتني الحزقة المتبقية من السيجارة بين شفتي، برطمتُ متخلّصاً منها كما يبرطم حمار بعد رفع رأسه من الماء، أعادتني إلى ملف صديقنا الدكالي الذي كوّنتُ له شخصية تليق بمسقط رأسه. لم أستوعب الكثير من الكلمات. خطّ مونيكا قريب إلى دبيب النمل. علمتُ أنه مصاب بالهستيريا النفسية والوسواس القهري، نتيجة التوقّف المفاجئ عن الكحول. وطنت مونيكا دواء زابينال ١٠مغ وابيليفاي ١٥مغ. مشيرة بتناول حبة في اليوم عبر خط طويل. أقفلتُ الملف، لبستُ ملابسي، وخرجتُ كالمعتاد صبيحة الأحد. عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً. وطأة الشمس تُرغمني على المشي بمحاذاة نهر لادور، حتى أنعم بكتله الرطبة. نهر لادور يجري منذ الأزل، تحسّ كأنك تراه لأول مرة، الإحساس نفسه يجثم عليّ عندما أزور باريس. أتطلّع إلى السين من الجهة الشمالية. إحساس بين الشقاء والسعادة، لا يمكن رصد هذه اللحظة إلى منزلة أو مرتبة، هي حالة نفسية، تتذوّقها حينها. يبدو كرينكا منشرحاً للغاية. يرتع ويلهو، يتوهم أنه يشاكس كلباً آخر، يدور على نفسه في حركة تهديد خيالية. لا أعرف كيف كان يعلم يوم خروجه، يوم الأحد، وكيف يعدّ الأيام، في الحادية عشرة إلا خمس دقائق صباحاً يبسط نباحه دون انقطاع، لا يهدأ له بال، إلا حين يرى ربقته الجلدية، يُسرع ماداً بعنقه، محزكاً ذيله يميناً وشمالاً.

جلستُ في الحديقة العمومية، بساحة الخزيّة خلف العمدية، يزيّنها تمثال النصف الفوقي للفنان ليون بونات، أيقونة بايون الشهيرة، لا تميز الفرق بين وجهه، وبين وجه لينين، وفي الوسط نافورة على شكل جذع شجرة، تحتفظ بالفروع القريبة إلى الأرض في تماسك أليف، يوحي بالحسّ الداني من الحبّ أو الخلود. الكراسي الخشبية تحقّق الراحة أحسن من باقي الكراسي الأخرى، تشعر أنك كالشجرة، لك جذور ضاربة في القِدَم، وتكتسيك لحظة موت شامخ، تسفيه موت العنفوان. نزعتُ رجلي من حذائي البلي. الثقب يبدو في الجورب الأيمن واضحاً، أصبع رجلي المفلطح بظفره الدائري يبعث على التقزّز، الجوارب كلها مثقوبة. بعض الأعضاء لا تطيقها لتصرّفاتها المشينة، أداري هذا الثقب بوضع كاحل رجلي اليسرى فوقه.

كرينكا يشجّعني ببصبصته على البقاء طويلاً. الشمس تمور في خدر لذيذ، وهي تلطم ظهري. وخز صامت يغزوني كقشعريرة لطيفة. جلست

إلى جانبي عجوز، يبدو أنها كانت غاية في الحسن في شبابها، ما تزال تحتفظ ببعض أثر الجمال، رغم مرور أوروبا بحروب شرسة، تكثر من المكياج الأحمر والأخضر. شعرها يمز بفراغات متوازية من فرط جمعه بأيقونة ساندريلا بمشبك حديدي أبيض. وقرط صحراوي يتدلى مع شحمة الأذن يكشف أنها زارت المغرب، أو تلقت هدية. تتلذذ مثلي بهذا السكون المشمس، تلف برأسها صوب الأشعة كعباد الشمس، قافلة عينيها تبعاً لتصورات غضبها الخزكي. لم أز في حياتي امرأة تحك جلدها بنفس المازوشية حتى تُدميه، تعاني من ألم النقرس. جلدها يطفح باحمرار مريب، غيرتْ وجهة نظري بابتسامة في وجه كرينكا. أعلم أنها ستزج بي في حديث سيطول، من خلال حركاتها وتهيؤاتها. الشيوخ يبحثون عن الدفء والحميمية نظراً لتجاهل الأبناء، وطبيعة العلاقات المكسوة بتسييس مقزز، ستفتح موضوعها حتماً برؤيتها للكلاب، وبعده ستحكي عن حياتها بالتفصيل الممل، ستتحدث عن دوكول وتشرشل وستبغض هتلر وفرانكو، وستفضل فرنسوا ميتران على جاك شيراك، ربما تبالغ، وستفتعل علاقة غرامية مع ألان دولون في شبابها، وكيف كان يعشقها حد الجنون، ستحزك رأسها في حسرة مصطنعة. الشيخوخة محزنة ومثيرة للشفقة، بالفعل صدقت تنبؤاتي، وأرخت حبل النظر بين كرينكا وبيني:

ـــ يبدو أنه كلب لطيف؟

أومأتْ لها برأسي، وظلّ ابتسامتي يرتسم على شفتي، يؤكد صحة كلامها. أدخلتْ يدي في جيبي، لأستنجد بهاتفي المحمول، ألمس رسالة والدتي. تراودني نشوة لإعادة قراءتها. كلام العجوز يعبرني ويسفيني كريح ناعمة، كأنها تحدثني من عالم آخر، أؤكد اهتمامي بنمنمة أو حركة أو توهيمة، حين تضحك أضحك تبعاً لها، تحكي عن طفولتها الشقية، كيف عاقبت كلبتها "ويندي" عندما التصقتْ بكلب متشرد في ذروة اللحظة الخالدة ، عاقبتها بالإقفال عليها لمدة أسبوع في غرفة المتلاشيات. الحق أنني لم أستطع التخلّص من روعة الحكايا لهذه العجوز، زجت بي في عالمها كسمكة يجذبها الشص اللعين. تحكي كما تحكي الجدات في الشرق، تهتم بالجزئي أكثر من الكلّي، ذابت بيننا المراحل، ترجمتْ لها رسالة والدتي. اعترتها نوبة جنونية من الضحك، حتى خفتُ أن يتوقف قلبها عن النبض، دمعت عيناها، تمسحهما بظهر يدها كطفل صغير في المهد، ترفع يدها. الضحك لم يترك لها مجالاً للتكلّم، تحاول أن تتكلّم، يذوب الكلام وسط قهقهة ملتوية، يخرج ممهوراً بقوقأة كالدجاجة، فتردف:

ـــ كتابة الرسائل حالة تخلّصنا من المنغّصات كلها، وتعزي هشاشتنا الذاتية، أعتقد أن والدتك عند نهاية كتابة الرسالة تخلّصت من لعنتك. أوه، أتمنى أن ألتقي هذه السيدة، وأقبل جبينها. إنها شجاعة وذكية، وغير متحزجة.

كان الوقت يسير نحو رتابة الأحد الميت وقت الزوال. اشتدّ نباح كرينكا، يرغب في العودة. أقوم موذعاً العجوز بعد أن رثينا لقاءنا القادم على نفس نغمات الأحد الصباحية. تضحك من جديد، كأنها تقدّم رشوة للفراغ الذي سيحيط بها بعد انصرافي. علمتُ أنها تُدعى مارثين، اتّفقنا على أن أناديها باسم طاطا مارثين. أبدت انشراحاً مبطناً، أعتقد أنه حزك شهوتها الصدئة. المرأة امرأة ولو بلغت أرذل العمر. القحب ميزتها وملتصق بها كالحياة مع الزمان. لعلّ ما تداولته الصحف في بلغاريا الأسبوع الفارط يؤكّد هذا الطرح. امرأة عجوز تخون بعلها بالقرب منه على الفراش المشترك مع شاب في مقتبل العمر. الغريب أن قلبها توقّف إلى الأبد في نصف العملية، ربما لم تعد قادرة على مسايرة إيقاع الركوب.

أعود أدراجي. الحرارة خفّت بعض الشيء. سرتْ نسمة رطبة من لادور وأنا أعبر جسر سانت اسبريه، تحسسئها بعذوبة، داهمني العطاس، استجذت حيويّتي، وتفتّحت شعب نفسي لهواء أكثر. كرينكا يسرع الخطو، يرغب في بيته السكسوني ووجبته الشهية. طريقي فارغ باستثناء حبيب يقبل حبيبته. القبلة شرط إنساني، ذروة الانوجاد الحقيقي. الفرنسيات مدمنات على القبل، كأنهنّ خُلقنَ من قبلة أبدية لن تموت. قبلة الحب يختلف طعمها عن قبلة الشهوة، قبلة خفيفة، تشبه لحظة الإمساك بعصفور ناعم مقرور. كرينكا يسبقني بعد أن خلّصته من ربقته الجلدية، تلك عادته، ينبح نباحاً قريباً إلى الأنين، حتى تُسرع مونيكا بتحضير صحنه المفضّل.

أخذتْ دوشاً لقتل روائح شهوة الليلة الفائتة وعزق الصباح. أعشق الزخات التي تداعبني، أرفع وجهي صوبها، تلثمني في رقّة، أحسّ كأنني أعيش في صدفة بحرية. مونيكا حضّرت طاجيناً مغربياً باللحم والجلبان، نعشقه معاً، تردف:

ـــ المطبخ المغربي غني ولذيذ، لولا ثقله بالزيوت، لكان أحسن مطبخ في العالم على الإطلاق.

تهالكتْ على الأريكة بعد أن أخذتْ حبة دوليبران، للحدّ من أزيز شراب البارحة. أسمع رنين الجرس كصوت الكناري.

ثرى من الطارق؟

٤) مونيكا

حمامو كتاب بلا غلاف. الصفحة الأولى موشومة بترسبات متشاكسة. انفعالات الطفولة لن تنتهي. من أين لنا بالوقوف وتشخيص أعراض مرضه؟ عن مكتسباته وانبهاراته الجديدة عندما تجاوز البحر؟ أم عن وشمه الشعبي الممهور بحس روحي مرهون بالقدر رغم كبته؟

هذه المستويات الفاعلة نفسياً واجتماعياً كلها في تشخيص حالته، لا تمنعني أنا مونيكا السطيفي من الطوح في شراك حب حمامو. يؤكد لنا جون كلود جوف؛ رئيس قسم الأمراض النفسية والعقلية في إحدى مداخلاته:

"على الطبيب النفسي أن لا يقيم علاقة حب مع مرضاه، مهما كان السبب، فنحن نستغل ضعفهم، لنخرجهم من بحيرة الأوهام، ونزج بهم إلى محيط أكبر وأوسع من هذه الأوهام. لا ندعي خدمة الطب النفسي والعقلي تحت حجة الحب كواجب إنساني، إنها الأنانية المفرطة للطبيب النفسي في تكسير الوصفات العلمية التي بذلنا جهداً كبيراً، لتعيد لنا تقويم السلوك المرضي إلى السلوك السوي، أو كان من الأفضل أن نفتح عياداتنا للحب بدل الشفاء، ونتمتع بجلسات حميمية. وسيستيقظ العالم ذات يوم على كل العقد الباندة".

إنني أنا مونيكا السطيفي، أبسط فرش ذاتي، ليس خوفاً من لعنة العقاب. ثقة شيء أكبر من الطب والعلم. إغراءات الجسد لا تحدها الجغرافيا، ولا الانتماءات، أو اختلاف الأفكار. ثقة نشوة مسربلة بألفاظ لا يفك حوافها سوى حمامو، يحزك قاع البحيرة، ويبلغ نقطة التماس، فأنا أحس أنه ينقر قطعة النحاس التي تقبع في القاع. إنه الكنز المرصود من جن، لا يفك طلاسمه عدا حمامو، كما هو الحال في كتب ألف ليلة وليلة.

لا أخفيكم سراً، حمامو شرقي المفقود. حمامو أبي النفسي للهناك، حيث تبدو الكثبان الرملية كأميرة متوجة بلهيب الحب العذري. حمامو فيروس الشرق المضمخ برائحة توابل الفلسفات الشرقية، دون أن يعلم ذلك. من يقول إني أبعثر ذاتي وأعيد ترتيبها على سمو الباسك، تلك تمظهرات

خادعة، تسوقها لحظة التبني فقط. الفعل الحقيقي لا يرتبط بوصايا ومفاهيم جاهزة، بل ينجرف نحو كومة من النار الخابية تحت رماد، يبدو بارداً في الوهلة الأولى، بمجرد أن تلمسه ريح خفيفة، تُنعش شراراته من جديد. إنه التمرد الجلي على النظرية القسرية المنغومة بتلوينات ذهنية، كالحكم والأمثال والأقوال، لتحذذ الخلاص الإنساني الساذج. حمامو كياني المبهم. الآخر الذي يحلّ في الذات مع أوّل لفحة تلفحني من شمس، هي أصلاً تعبث بالشرق. حمامو هو احميدة والدي، يضفتي ضفاً بليغاً، أتشمم رائحة غرق تحزك مراكز نفسية، لا تملك حتى الأدوية القدرة على زعزعتها. هل يعلم والدي أننا خسرنا الحرب جميعاً، تلك الحرب القذرة التي تفرق بين الشمال والجنوب، تفرق الإنسان إلى أشلاء، يستعصي جمعها؟ إننا نعيش سيرة الضياع الصامت بامتياز. حمامو الإنسان المجبول على أداء الأدوار كلها، يستمع إلى نفسه أكثر مما يتكلّم، فيه مخايل والدي عندما يتعب من اغتراب، ليس له ذنب فيه، سوى حب ميتور. الحب خارج الجغرافيا يُذكي في روحنا لعنة، تطاردنا دائماً. لماذا أحبّ والدي والدتي على مشارف الحدود بين فرنسا وإسبانيا في منطقة الباسك؟ الجواب في غاية البساطة: كان يبحث عن حبيبة تدرك عمق الالتباس والهوّة النفسية التي لم يتخلّص منهما.

أنا مونيكا أعاني من عقدة أوديب برغبة مقلوبة. صورة والدي الوحيدة المخزونة في الدولاب هي ما تبقّى لنا من احميدة السطيفي، أخاه الآن يحكي لأخوتي الصغار في سطيف عن ابنته الجميلة مونيكا من النصرانية الباسكية. تُداهمني نوبات الحنين دائماً في البحث عنه، فأتناسى الأمر خوفاً من شيء مبهم، خوفاً من النهايات المحدّدة. التناسي سلاح جميل في وجه البعد. أقرّ أنا مونيكا السطيفي، لم أكلّف نفسي رحلة البحث عن السبب الحقيقي لافتراق تشيشيلي واحميدة. مفتاح السرّ لا تملكه سوى تشيشيلي. المفتاح النفسي يربك نظرة السمو المبثوثة في الذات المركزية فقط، روافدها شبه جافّة في التواصل مع باقي الذوات، حينها يُفضل البكاء، ذروة درء ما تبقّى منا اتجاه احميدة. تصدر تشيشيلي تنهيدة، وتتلعثم مشيتها بمجرد ذكر اسمه، لا يمكن أن أخبرها ذات يوم، كانت تظنّ أنني ما أزال في الخارج، أترضدها من باب النافذة الجانبي، تضمّ الصورة الوحيدة لاحميدة بتسريحة الفريزي وقميص أزرق بياقة طويلة، عينين مشوبتين بحزن أبدي، تتطلّعان إلى إدراك جواب الخلاص، أنف كبير، يستغلّ المساحة الأوفر في الوجه الطولي، الكتفين المقوّستين بعض الشيء تعكسان إجحاف الطفولة المغتصبة في أحراش الجزائر. كان صوت

تشيشيلي رخيماً لدرجة لا تُتصوّر، وهي تغنّي في وداعة مع مضغ حرف الحاء:

اهميدة حبة رمل لمعت على مشارف الثلج

ريح الشمال، أتلفت الحبة واللمعان

اهميدة يعود إلى بيتهم الأول

يرمي شراكاً، لعلّ الأرانب في إفريقيا طيبة للغاية

حبة الرمل تلمع دائماً أينما حلّت

اهميدة تحوّل إلى لؤلؤة في صدفة في عمق بحر لجي.

حمحمتُ بصوتي، حتى أحافظ على المفتاح النفسي. أحيي تشيشيلي من الباب مفتعلة الدخول إلى غرفتي على وجه السرعة، تصطنع ابتسامة مصبوغة بصفرة حتى تتجنّب أسنانها، فيستمرّ مسلسل الهروب. لكل منا هروبه. الهروب قطعة من العذاب. أعترف أنني أتوسّد عادات نفسية ليست سيئة على كل حال، إنها غمد الرغبات الدفينة، المعتمدة على منبهات التعاقد بإشارات أو روائح معلومة، ليس امتناناً لسلوك حيواني صرف، لكن هذه العادات ترتّب نفسها وفق العوالق النفسية، كما يعلّق المحارب سلاحه، وينظر إليه بين التشفّي والرجاء، أو نسفيها على الأرجح حالة التوقّع الحية التي تتبنّى عدوانية الآخر لنا، وهنا يتجلّى الهروب بمعنى الكلمة. إننا واعون غاية الوعي على أن الإدراك الكلّي للنزوعات والميولات، يرتبط بالسفر في شعاب النفس، وحينها سنعلم أن الرغبة المقلوبة دافع أقوى منا، وسنتظاهر بالعكس، ونرسم بشاشة مصطنعة، وسنناقش الفن والأدب والموسيقى والطب بدعوى الفهم الحقيقي لمتطلّبات وحاجيات الآخر فينا، عندئذ تتراكم أساليب الوقاحة في لاشعورنا. وتغدو لحظة مقيتة، تخلق حواجز مفتعلة تربك الذات المركزية المحيطة بإشارات غير منسجمة مع طبيعة التوجّه، فيستمرّ السفر والبحث في الدوافع من الداخل، وليس من الخارج، وهنا إما سيحدث ذلك التلاؤم المعهود مع الآخر، أو الهروب حقاً إلى أمراض نفسية، مصدرها الرفض في البداية، مروراً باليأس، وعبوراً بالإحباط، لينتهي المآل إلى الاكتئاب، حينها سنلزم أنفسنا هروباً من نوع آخر، يعتمد على زعزعة المسطّر بتوهّمات أكثر.

٥) عيد الميلاد

فتحت الباب بعينين ناقصتين، تهادن نوماً وشيكاً وقت القيلولة. وجدت جارنا الهولندي، يطالعني وجهه الأحمر المنجعص كبطيخة صيفية. يكاد الدم يقفز منه، يتوسطه موسطاش مفتول الشنبين كقط بزي. الموسطاش يكسوه زغب المقدمة الأشهب من فرط طابا ورغوة البيرة. أسرح بعيني اللتين تفتحتا بما فيه الكفاية. البدانة تُربك حقه في التمتع بالنزر القليل من الرشاقة. السروال منهدل، يسقط دون أن يستقز على مؤخرته، فتتضح الهوة بين المفرقين مكسوة بزغب، يميل إلى الحمرة، هذا النوع لا يلبس الكيلوتات لكثرة الاحتكاك اللحمي، يشد سرواله إلى تحت كرشه المدفوع بشبرين كامرأة حامل في شهرها التاسع بحزام عسكري أخضر، به عيون نحاسية متقابلة. حاول أن يخفي هذا الحمل بقميص برتقالي مهلهل، عليه رسم ميناء روتردام. يفتح فاه بابتسامة، فانجعص الوجه أكثر، وطغت الوسامة على الانجعاص هذه المرة. حزك ذقنه إلى الأمام ، وأردف:

ـــ أستسمح على الإزعاج. الوقت ليس وقت رنين الأجراس، لكن كلبتي خوليا ترغب في أن تحتفل بعيد ميلادها الرابع.

أخرج رجله من صندل بلاستيكي متآكل من خذ واحد، يقعي الصندل جهة اليمين. حك حاشية رجله المسلوخة سلخاً مقعوراً كموضع نخز حمار غشاش. رفع رأسه:

ـــ في تمام الساعة الرابعة، سنطفئ خوليا شمعتها الرابعة.

ضحك ضحكة، تهدهد معها كرشه، اهتز القميص البرتقالي المهلهل، فتحرك معه ميناء روتردام:

ـــ الحضور إجباري، إذن. لا تنس أن يحضر كرينكا ببذلته الرسمية، هذا عيد ميلاد خوليا.

رفع سبابته في الهواء بتهديد لطيف:

ـــ حذار أن يتغيب كرينكا. إنه عيد ميلاد خوليا، أوصيه في أن لا يفكر

أن ينال منها، إنها مجرد دعوة فقط.

دب نحو بيته وبقايا قهقهته تصلني كخشخشة نبتة جافة حين تدوس عليها الأقدام، يدفع الباب بجسده، تسقط ضلفة سيخ حديد انفصلت عن الباب من فرط الرطوبة. أسمع موسيقى شريط لأطفال تنبعث من بيته، يغني تبعاً لهذه الأصوات بصوته الأخن.

ابتسمت مونيكا في وجه كرينكا، يدرك أنه محور حديثنا، يرفع بأذنيه، ويصدر نباحاً مؤنساً، يذكرنا بوجوده بيننا. مونيكا ترغب في أن تحضر هدية عيد الميلاد، تأخذ رأيي حول طبيعة الهدية. تهالكت على الأريكة، واكتفيت بنمنمة فقط حين اقترحت بسرعة الكثير من الهدايا، يستقر رأيها على شريط سينمائي، يكون فيه الكلب بطلاً، يحقق ما عجز الإنسان عن تحقيقه، أقول:

ـــ فكرة كلبية، لا بأس بها.

أنهيت رغبتها في الاختيارات. أدخلت رأسي تحت الوسادة لقتل النور المتسلل من النافذة، أسترق النظر جانباً من تحت الوسادة. كرينكا ينام قبالتي على الكنبة البنية، يحزك رأسه، ممدداً بأرجله في استلقاء أميري مبهر، ربما هو الآخر يهادن النوم، أو يفكر في مستقبله. الكلاب في أوربا لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، تنافس الإنسان في الحصول على واجبها بالكامل.

تذكرت كلاب قريتي الناشفة بهياكل عظمية منخورة، تبحث عن مواطن الخراء، وتطلب من الله أن تكون أيامه كلها جفافاً، حتى تنعم بالجيف، وتصاب بالتخمة. كلبي مسعود كان يعلم ميعاد استبراني، فيلتقط ما خرج من فتحتي قبل وقوعه على الأرض، مبصيصاً قرب مؤخرتي، حتى لا أطرده، مات كلبي مسعود بعد أن دهسته بيكوب ولد العابدة، من الأحسن أن يموت أو يرحل إلى الضفة الأخرى. الهجرة الجماعية المقبلة ستكون حيوانية. استيقظت على أنين كرينكا، يبدو في زينته التي تليق بحضور حفلة باذخة. القبعة السوداء المشدودة على رأسه بخيط قابل للتمديد، أنشوطة تحف عنقه، عليها قطعة بيضاء من البلاستيك مكتوب عليها بخط أسود بارز: "كلب صديق خير من صديق كلب". القميص الأبيض المخصوص لحضور الحفلات، تحت الياقة يمز سمط ربطة العنق، فتتشكل الفراشة فوق الزر الفوقي. سروال أسود تلبسه إياه مونيكا وفق البرستيج الإيطالي، إذا كان القميص مفتوح اللون، فالسروال يكون على العكس.

فضلت مونيكا أن لا يلبس كرينكا الحذاء المدبب، لم يحسن المشي به، يبدو كبدوية تلبس الكعب العالي لأول مزة حين تدفع بركبتيها كالجمل. تنتابنا نوبة من الضحك حول مشيته. تنهي مونيكا ضحكنا بنزع الحذاء. ينبح، يرغب في أن يلبس الحذاء مزة ثانية. سرعان ما سينشغل بالنظارة الموضوعة على خطمه. كرينكا يبدو كعريس ساذج، تأخذ له مونيكا صوراً في أماكن ووضعيات كثيرة، أجملها على الإطلاق تلك التي يضع فيها رجله، بمثابة يده على قيثارته الصغيرة كفن سيوقع أنغام الفلامينكو.

الكلاب تبدو مشدوهة ومشغولة في كسوتها، أنيقة للغاية، تحس بأنها بلغت شأواً بعيداً في التوحد الطبيعي. انبعثت موسيقى طفولية من مكبر صوت على جانب إفريز رخامي مبثوث بجرار طينية صغيرة، نبتت على ترابها أزهار صفراء، وحمراء، وبرتقالية، تنجذب لها في رهافة، فتمز أمامك كل لوحات فان غوغ، لحظتها تستحضر لوحات الأحذية المترهلة المأزومة، إنها العلاقة الجمالية، التي تربطني بهذا الفنان. يسوقك الحنين المزعج إلى طفولتك الشقية المليئة بالألم والأحزان. الأحلام كالفقاعات سرعان ما تتناثر في الهواء. الحنين له ألوان مخملية في الغالب. حديقة البيت تعج بالحركة كخلية نحل. نجلس في الطرف الثاني المخصص للكبار. الصغار يتباهون بتعداد محاسن كلابهم. كرينكا يبدو وقوراً، يرى أكثر مما يتكلم أو ينبح، كلاهما يجسد وضعاً حقيقياً، إذ إننا ننتمي إلى إحدى الطائفتين، هذا البيت نموذج مصغر للدولة أو للعشق الهولندي. الأحجار هي من تحدد الخلاص. تماثيل وأنصب كثيرة. التعبير عن التاريخ والحب والفن ينسكب من يد خزاط، يلملم أشلاء حكاية خوف من غرق محتمل. الإنسان الهولندي يحمل معه غرقه أينما حلّ، فتراه يُسرف في وضع جغرافيته وتاريخه على الحجر الواقف بدل المنبسط الأكثر عرضة للغرق؛ تماثيل في غاية الرقة رغم أنها تحتفل بجمالية القبح أحياناً. يشدك تمثال رجل بلحية مشاكسة، يثني ركبتيه، ويتبزز، تبدو مؤخرته مصقولة بدقة. البراز دائري، كأنه قبة، يكاد يلامس المخرج، يضع يده اليمنى على ركبته، واليسرى على جانب مؤخرته. الكلّ تقريباً يفضل رؤية التمثال من الخلف للإحاطة الكاملة بطبيعة عملية الإفراغ، حين يختلي الإنسان بنفسه، فيصبح للبراز الإسمنتي رائحة. وغير بعيد عن الرجل المتبزز، تُرهبك خنازير النهر البرونزية، لا يظهر منها سوى خطمها، كأنها تسبح في نهر جار، تلمع مع أشعة الشمس، تُبعد رجلك بدون شعور مخافة أن تجذبك إليها، وهنا يمتزج الخيال بالتصور اللحظي. قرب شجرة الأكاسيا، يقبع تمثال برونزي؛ رجل بدون رأس، يلبس معطفاً طويلاً أسود، يقف على رجل واحدة، يميل

بانحناءة حاملاً في يده اليمنى علبة كمانه، وفي يده اليسرى قبعته، كأنه يحيي كل من دخل هذا البيت. وفي الجهة الأخرى من الحديقة قرب الباب الصغير، يفاجئك تمثال تمساح، يطلّ برأسه من أنبوب صرف، ماسكاً بصبي من طرف رجليه، يحاول الصبي أن ينفلت منه في جو درامي، قد تتأمل النهايات المحتدة، من المحتمل أن طريق النجاة مغلقة حتى إشعار آخر. أما في وسط البيت، فثمة نافورة لأسد يتبوّل ماء، ولوحات انطباعية تجسّد الاخضرار الدائم لبلد الأراضي المنخفضة، معظمها للفنان الذي قطع أذنه فداء للحب، حينها أدركتُ أن فان غوغ تفوق شهرته سبينوزا.

أطفأت خوليا الشموع الأربعة في بهجة صحبة الأطفال والكلاب الأنيقة. يتسابق الأطفال على ترديد أغنية الأماني والأحلام: happy birthday ترتفع الأصوات، يختلط الحب الممزوج الموخد بين أشكال الفرحة كلها.

قطعت خوليا الحلوى بسكّين بمساعدة صاحبنا الهولندي، يتعالى الصفير والتصفيق. تنقشع أنوار الفلاش كالبرق، تتلاطم الوجوه كأننا في عالم آخر. أتذكّر والدتي عندما لا يروقها طبخ عفتي يامنة، تنعت طبخها بعشاء الكلاب، ماذا كان سيحدث لوالدتي، وهي ترى أننا نتقاسم الفرحة والأكل مع الكلاب؟! طاولة الكبار تعجّ بنقاشات، معظمها يحوم حول أصل وطبيعة وما جذ في عالم السلالات الكلبية. جاري الأصهب يحزك مزة مزة نظارته على أنفه. النظارة مستقزة، لكن العادة النفسية تُرغمه بدون شعور على لمسها باستمرار. أثارني صمته في الحقيقة، وتحريك رأسه في حركة مبهمة، لا تعكس الرؤية الواضحة، للصمت أحياناً تصوّرات، نصطفيها من صلب المكان، فنختار البلاغة اللازمة، محضنين أنفسنا بقلاع المعلومات والأفكار، ويصبح كل ما نقوله لا لُبس عليه، تكون العاقبة للصامتين في أن يسودوا ويحكموا المجلس، فيسرقوا النور عندما يُدرجون بآرائهم المرثبة من بين أيدي الثرثار، الذي كرّس كل وقته لتوجيه الطاولة والنقاش. تدخّلتُ لأكسر شوكة استحواذ امرأة أربعينية باريسية اللكنة، تدافع عن الكلاب إلى حدّ المطالبة بتخصيص طائرات للسفر لهم وحدهم، حتى لا نزعج راحتهم، فقلتُ:

ـــ فرنسا في المستقبل لا تحتاج إلى اختلاق حروب عليها، لتنمحي من خريطة العالم. الكلاب وحدها جديرة بأن تنسفها. تصوّروا باريس وحدها تستيقظ وتنام على نباح مليون كلب.

أبدى جاري الصامت ابتسامة هادئة، ارتشف رشفة طويلة من طاس قهوته فحدثاً طقطقة اللذة الفرجوة. المرأة الأربعينية تحزك صدغيها، نسيث اسمها للتو، ذاكرتي مشوشة لا تقبل الأسماء والأرقام والوجوه. ترمقني بنظرة جبارة، تجذب حقالة نهديها إلى الأمام، أحدثث صوتاً يلهب النشوة المكبوتة، أستعذب فتح هذه الحقالة بنفسي، تغزوني قشعريرة لذيذة، تزعزع نزوعاتي الراكدة في قاع الرغبات الدفينة منذ عهد عاد. مونيكا تدرك دائماً عطشي لهذه الرغبة، تحوم بصدرها، وتلف بمؤخرتها، أضع صدري على ظهرها متماطلاً في فتح الحقالة كأنني أتذوق حلوة القشدة البيضاء، أصوب أنفاسي الحارة صوبها، أهدهد شحمة أذنها بلساني التعباني، يسرح كلامي الهامس في عروقها كأنني أشير لها بعراك سيطول، تغرز أظافرها في جسدي، أتلذذ هذا الخمش بنوع من السادية المبطنة المشتهاة، حينها يغيب قلقي الميتافيزيقي، وأنا أرتجف من فرط النوبة الصغيرة الهاربة. كنتُ أعلم إجابة غريمتي الباريسية سلفاً:

"إن ما قلته من رابع المستحيلات، بناء على سياسة الدولة في تخصيص كناش الصحة لكل كلب، وحتى ظاهرة الكلاب الهجينة خذد مصيرها بإعطاء الحق للشرطة في إطلاق الرصاص عليها، خاصة بعد فضائح كلاب البيتبول المستفزة".

مونيكا تمطر كرينكا بالصور. جارنا الهولندي يقترح برنامجاً للألعاب والموسيقى، يبدو متأثراً بالبرنامج الترفيهي الياباني:"الحصن". يختار لجنة التحكيم من أطفال، يظهرون حماساً منقطع النظير في إظهار شطارتهم، يصيح أحدهم بين الفينة والأخرى فاضحاً غش صديقه المتعاون مع كلبه في كسب جولة من الجولات، تتسع ضحكات الأطفال والكبار على حد سواء في لعبة الكرة العالقة في شجرة الأكاسيا. يقفز الكلب، لا يلوي على شيء، فيسقط في البركة في الأسفل. الكلاب فقدت أناقتها ورونقها من شدة الطفش. المرأة الأربعينية تحاول أن تزج بنا في المزيد من الحديث، انشغلنا عنها بموضوع الطفش، وجدناه لحظة للخلاص من حديث يطول. ترمقني بامتعاض، فقد أدخلتها في دوامة التجاذب، الذي تكرهه الفرنسيات حد الموت.

شمس الغروب تنحني في الأفق الغربي، لم يفضل منها سوى اللطمة الحمراء الأخيرة المشوبة بإحساس لمس فراغ، تركه ضيف عزيز. سكوت مكبر الصوت، كان دعوة لإنهاء الحفلة.

بالفعل أطفأت خوليا شمعتها الرابعة رفقة أصدقائها من البشر والكلاب.

٦) السعدية والدة حمامو

(عيب البحيرة تفتاشها)

سأقدم لك نفسي بكل بساطة: السعدية بنت أحمد الملقبة ببنت فزيقش، في بلدتي الكنية تغلب الاسم، وهذه حكاية أخرى، لا يسع المقام للتفصيل فيها، خاصة وأنها تنال من سمعة العائلة. الأيام كافرة بالله، والزمان غاد، والحمارة مشاءة. يقولون والعهدة على والدتي مباركة: إنني من مواليد شهر رمضان، أما عن التواريخ، فنربطها بالأحداث دائماً، تؤكد والدتي على أن هذا الانزلاق من كوتها تم عام (رفود الملك)، وأنتم تعلمون أن الفلك يدور، والساعات بدالة، قد يكون ذلك صيفاً أو شتاء، أو بينهما. كنت منذ صغري أميل إلى اللعب مع الأطفال الذكور، أرمق هينتهم عندما يشرعون في التبوّل واقفين، تنتابني لحظة حيرة بالغة، أحاول أن أقلّدهم، لا أفلح أبداً، يهبط البول على جنبات فخذي كدلو مزّقت حوافه التحتية، أبتكر أنبوباً، أضعه على مقدمة فتحة شيني، وتستمز المعاناة، حينها أدركتُ أن هذا الشيء هو سر الاختلاف وسر التواجد، وسيزداد الإدراك ملياً عندما داهمني دم البلوغ، وانتفخ ثدياي، وتصلّبا كبصلة، أدعكهما بيدي في نعومة، فتشتعل نار، لا أعلم من المسؤول عنها، وسارت تتضح الأشياء إلى حدّ ما. الحقيقة بدأتْ أميل إلى ولد حمادي بعينيه الخضروين، ومقدمة شعره الفاحمة الخارجة من طاقيته الصفراء، وصوته العذب السلسبيل، تسمعه من فدان "الخنيك"، وهو يغني أغنية (اللميمة). تسمعه عفتي حادة التي فقدت والدتها منذ شهور، تشرع في نواحها، تنتابها حالة من الهستيريا، إلى أن يُهدئ والدي من روعها. سمعتُ والدي يحدّث مباركة والدتي عن زواجي، تغزوني قشعريرة لذيذة بين محاسني كفرحة مبهمة، يؤكد لها أن الرجل بذراعه وذراعه أخضر أينما وضعه يحصد المال. أيقنتُ أنه مبارك ولد سليك. سرحتُ في حياتي الجديدة كما تسرح البهائم في حقل يهيج بشقائق النعمان والجمرة، فذقتُ حلاوة اللذّة الخالدة، لكنني كالهيم كلّما تذوقتها، أزداد عطشاً. زوجي مبارك كان يعلم أنني أكره العجلة خاصة في هذا الشيء. يستخدم يده لوقت طويل، وبعدها لسانه، يحوم به على سائر جسدي كبقرة تلحس عجلها. لعابه يخلق إرهاصات كدبيب النمل، أصدر أنيناً طافحاً، حينها يعلم أنه مُلزم بالصعود، فتتعالى الأنفاس

والرهسات، حتى ندرك نشوة الحياة العذبة، ويزداد حبي لمبارك كأنني أكتشفه كل مزة. العاق حمامو تمرة حلوة للفراش. ما أحكيه لكم مجزد تنفيس عن ضيق مترسب ككومة من الروث لاصقة على مؤخرة نعجة. أحاول فتح مطمورة الأيام، وأدفع فردة فمها حتى يخرج الخز الرهيب. أعلم أنكم ترغبون في أن أتحدث لكم عن خيباتي بالجملة. هههه، كثرة الهم تضحك، دعوني أتحدث، أنسيتموني عن الشهادة (يالطيف.. سأبعث برسالة (فاعلة تاركة) إلى ملك فرنسا، أحكي له بالتفصيل عن المسخوط ابني، أنا على يقين سيطرده، ويعود إلى الدوار، يفلّي الكلب بالنصف، سأتشفى فيه، ولا تأخذني به رحمة. أما إذا كان ملك فرنسا هو الآخر قد عض أفه في ثديها، فسيحتفظ به، ساعتها سأشق طريقي إلى الوالي سيدي مبارك، سأكنسه بمكنسة من السمار، وأذبح ديكاً أسود باسم ميمون، من يومها لن يريا اليوم الأبيض، وتصبح حياتهما زقوماً. ما معنى أن ينسى الابن أمه وهو يتنعم في فرنسا، ويترك أمه عرضة لجوائح الفقر. لم أكن أعلم أن الأمهات يلدن أعداءهن من بطونهن، لوكنت أعلم ذلك مسبقاً، لقعصته في المهد، كما أقعص قملة مشاسكة. لا أتكلم مثلكم كلام الفذن. الكلام أخذ ورد في النهاية، إنني امرأة دغرية، أعد الدجاج والبيض كل يوم، لا أسرف في حاجيات البيت، كل شيء بقدر معلوم، من يثق في الدنيا أحمق، كأنه يثق في بئر، لا قرار لها. منذ مات الحمار، الذي كان يخرأ التفاح، أقصد زوجي مبارك ولد سليك، وأنا أنجرف إلى الوراء. لم يفضل من الأيام سوى النحس، والعياذ بالله، حتى الجفاف مكث فينا كما يمكث كلب عقور في الكانون. الحجر فقد لونه، فما بالكم بالأحياء؟ هههه، أعلم أنكم ستزدردون ريقكم، تخافون زوال النعمة في الفذن. أنا على يقين أن المسخوط حمامو يأكل حذ التخمة، وينكح الشقروات. يا حسرة على الأيام، من الجحشة الشهباء إلى النصرانية الشهباء. قلت لكم من البداية إنني امرأة دغرية. آه، لو تركني المخزن أدخل إلى فرنسا، سأضع أصبعي في أذني، وأصيح ملء فمي:

ـــ عوك.. عوك.. عباد الله.. ابني لم يبز بي.

يقولون: الكلاب في فرنسا لها حقوق أفضل من (المروك) أكحل الرأس في هذا الخلاء الموحش. ابني الصغير شم هو الآخر رائحة صنانه، يرغب في أن يعيش الحياة كما يقول. الحق لله كل جيل من جيله. آه، لو كان المسخوط حمامو ينفحنا ببعض الريالات، لترفّه حالنا بعض الشيء، يقولون: فرنسا بلد المال. أنا على يقين أن حمامو يبذر المال عن اليمين

واليسار، وينسى أفه التي حبلت به، ربته، خرقته، غسلته، أرضعته، وسهرت معه الليالي. الله وحده يعلم. سأكتب الرسالة إذن إلى ملك فرنسا.

٧) ليلة بيضاء

مونيكا رتّبت الملفات بعد أن أفردتها على المكتب من قبل، تظاهرت بالعياء ممرّرة ظهر يدها على جفنيها، ستبكّر بالنوم حتى تكون في وجه الاثنين على درجة عالية من الحيوية. تهالكتُ على الأريكة كالعادة، بالي يشتغل بوشوشة، لا أعلم مصدرها. صراع خفي كاللعنة يستفزّني، أنساق إليه بغية أن أحيط به، أعصر مخي دون جدوى. عضلاتي ليست مرنة. ثقل خاص يجثم على فكري، يُحدث شرخاً نفسياً رتيباً. اكتفيتُ بصور التلفزيون الصامتة، تبدو الصور مجنونة بحركاتها الصبيانية والبهلوانية، أريد فعل أي حركة للتخلّص من سطوة اللحظة، أحكّ رجلي، أصفّر بين أسناني، أدخل يدي في جيبي، أتحسّس رسالة والدتي، تغزوني فكرة إعادة قراءتها بالكامل، تشذني التهديدات الملفوفة بنزوع سلطوي مبني أساساً على مخزون ساذج. مسكينة والدتي، تخال كل البلدان مملكات: "اعلم، يا ابن الكلب، إذا لم تبعث لي بحقّي فيك أسد به رمقي هذه المرّة، سأشكيك لأسيادك، أقصد ملك فرنسا، الله يزيد في ملكه، ويطوّل عمره".

رفعتُ بصري إلى التلفزيون، أشعلتُ سيجارة كمال بدون فيلتر، تزفّ صورة والدتي في كسوتها الشاحبة مبقّعة، عليها رسوم أزهار صينية، تلبس فوقها تنورة طويلة مخصّصة لجمع الحشائش، تنتعل حذاء أخضر، له فتحة فوقية، تسهّل عملية انتعاله، فأحدثُ نفسي بعد أن سحبتُ نفساً عميقاً من سيجارتي، وأرفع بدون وعي وسطى يدي في حركة بذيئة:

ـــ مممم.. لا أبالي، قد قطعتُ صلتي بالوعيد منذ أن غزبتُ في رحلتي، لحسن الحظّ أنني لم أشرق، تخلّصتُ من الالتزام المقيت المنسكب من تجذّر اجتماعي مبني على الخوف من كل شيء. سرتُ أناي بمخي بعيداً عن الموروث الممتدّ بمواضعات وأحكام، تجرف البشر إلى البحيرة الراكدة بتعفنات الوطن الذي أتلف كل شيء، وجززتُ نزوة الحماسة النابتة في أحشاء الوعي لخدمة صيرورة الأجندة أو الأنساق الجاهزة، أحياناً أشرب البيرة، وأزعق فرحاً بلا حدود. أسبّ الوطن وأبناء الوطن، واليوم الأوّل الذي تعلّمنا فيه الحرف الأوّل، وبعدها أشرع في البكاء عن غير قصد. لقد فوّت الوطن على نفسه فرصة العمر، وانتهى بنا المآل في دول، كنا نرغب

في الاستقلال عنها أيام الجهاد الأصغر. واليوم يموت نصفنا لبلوغ سواحلها، فنمجد تاريخها، وسنحفظ نشيد الوطن الثاني (المارسيان).la marseillaise. إذ رغبنا في الجنسية.

نقر الغراب اثنتي عشرة نقرة داخل الساعة. الوقت منتصف الليل. السكون يجتم على بايون، باستثناء الجداجد التي تسكن شقوق شجر الكستناء، تموسق الليل الهادئ، وتسرح به في أتون عوالم مبهرة. طويت رسالة والدتي بين المهانة والانزياح، وعدلت عن النوم. كانت ساعات العمل القليلة مريحة للغاية، ثلاث حصص لتعليم اللغة العربية وسط الأسبوع في إحدى الجمعيات العربية الملحاحة، خوفاً على أبنائها من ضياع اللغة الأم، وحتى لا يفوتهم إدراك الأصل والشرع، فقد بات ربط الفرع بالأصل حجة العقد وميزان الثوابت. الحقيقة أنني كنت أبذل جهداً إضافياً، حتى نسوي شعوراً نفسياً تجاه لغة منسابة، لا تتعلّق بالشعر والدين وحدهما، كما يتخيل الجميع، بل ترصد الظاهرة الصوتية المتموقعة داخل بنية تشكيل الحروف فونوتيكيا. كان علي أن أكسر رتابة البرنامج اللغوي المندرج بعيون شرق أوسطية، وأركب برنامجي الخاص المراعي لبيداغوجيات، تستلهم رؤيتها من الجغرافيا نفسها، وهنا يسهل على الطفل الاحتفال باللغة بدل الخوف والرهبة من ذاك الحرف الغريب. أبدى الأطفال نوعاً من الجهد وتحسن المنطوق والكتابة معاً، يستهويهم المسرح في أدوار سهلة، لا تتعدى الجملة الواحدة في أدوار مختلفة كجحا، أو الأمير الصغير، أو كليلة ودمنة، وأحياناً كنا نمور في جوقة قصد تلحين كلمات جماعية، تبشر بشفاء عصفور مكلوم، أو التعاطف مع كلب جائع قرب نهر لادور. كنت أعشق قطعة الإخوان مكري، فتصدح الأصوات الجميلة بترديدها، حتى تنفرج الأفواه عن جمالية القرب اللغوي:

عندي بابا

عندي ماما

ديما معايا حتى في النوم.

القمر يطلّ من النافذة كامرأة في كسوة كاشفة واصفة. أتلذذ بهذه الصورة، ليس بتصور رومانسي شاعري، أو عطب عاطفي، لم يبرح جرحه. ثقة إضاءة للحياة من جهة احتضارها كما يقول أنطونين أرتو، تحزك استيهامات واستشرافات، تطلّ من خلالها على حالة الاهتزاز المرتبطة بلحظات معينة. فتحت النافذة، استقبلتني روائح رطبة، ازداد غناء

الجداجد في كونشيرتات موسيقية مضبوطة، ليست ثمة بياضات ونشازات، أشعلت سيجارة، أكرسها للحظة التي أنزلوا بي الحياة في هذه الساعة، أصوب الدخان في منحى القمر، تسري خيوط منثورة كأنني ألفتها في وجهه. الكلب كرينكا يئن، ربما يعيش حلماً جميلاً. كنت أنوي دعوته إلى مسامرتي، عدلت عن ذلك، وبحثت عن فيلم أداوي به ليلتي البيضاء. الفيلم يحكي عن حياة عذاب رجل من الطفولة حتى الكهولة المتأخرة في حبكة بديعة، يجسدها الممثل الذي أعشقه حد النخاع طوم هانكسTom Hanks، في دور سوسيوكوميدي لعلاقات متشابكة من الطفولة المغتصبة إلى المواقف السياسية الرتيبة للإنسان الأمريكي. سيظلّ طوم هانكس مغرماً بالعدو دون هدف، بالفعل إنه حلم الإنسان الأمريكي الذي يعدو دون هدف. لم أرغب في أن أرى ريشة الأيام تسفيها الريح، حينها فهمت مغزى الريشة عندما ركزت الكاميرا على الإحاطة بها، وهي تسافر دون وجهة. أقفلت النافذة، أحسست ببرودة تجتاح مسامي. تخرج مونيكا بعينين متوزمتين، تقصد التواليت، بدت مغرية في لباس وردي خفيف، يكشف جوانب ثدييها، ينهدل حد سرّتها، تبدو جذابة من الأسفل أكثر. بياض يُغري باللّحس والفض والبوس، كما تقول المالكية. قبلتني قبلة سريعة، أسمع غرغرة بولها كمقلاة زيت تستقبل سردينا. أسبقها إلى الفراش بعد أن تخلّصت من كل ملابسي، فقد سفت ريح أقراص دواء سيروبليكس التلعثم إلى وجهات بعيدة، أضحيت أعبر عن أفكاري بدون مركب نقص منذ اليوم الأول. سيروبليكس يقوي من هرمون السعادة، أقصد السيروتونين؛ قرص واحد عقب وجبة الفطور كاف لترتيب الأفكار على الوجه الأصح.

أدخلت يدها في شعري، تمشده في نعومة، ويدها الأخرى تلاطف شعيرات صدري. أضع رأسي على كتفها، وأشرع في تحريك أنفي للوقوف عند الرائحة البشرية المستفزة. طالت العملية، وغرقنا في جحيم من غزق الشهوة، وأنفاسنا المتلاحقة تملأ الدنيا. تخلّصنا من الغطاء بعد ارتفاع درجة حرارتنا، تشابكت أرجلنا، لزوجة مقرفة بين الفخذين وروائح اللذة تشبه بقايا بيض في اليد أو رائحة الكلور.

أخذت دوشاً في تثاقل منتعشاً بالزخات الدافئة. أوجه وجهي قرب الرشاشة، تكسوني لحظة سعادة، لا تكسرها سوى سطوة الموت، ألبس ملابسي، أشعل سيجارتي المحبوبة مستقبلاً صباحاً طرياً على حافة نهر لادور...

٨) شقة وأوهام

أعبر بروح خفيفة بعيدة عن النمطية المألوفة. أعبر الجسر خفيف الظلّ، أتحسس الخيوط الأولى للسطوع كمقرور. الأشعة تستدرج منذ الأمس ربيعاً طال انتظاره، أميل برأسي في تهويمات ناعمة رغم الخصاص الذي خلّفته الليلة البيضاء. الجفن خاصم الجفن. الصباحات الدافئة تحتاج إلى الكرواسون المحشوّة باللوز، وطاس يزبد برغوة الحليب والقهوة في بار شافي ببايون الكبير. دفنتُ قامتي في مجلّة (لتورف)، يبدو الجوكي بازير بقامته النحيلة اللغز المحير في السنين الأخيرة. يقول الطبيب الشيخ البيروفي فركاس طابروس:

"لم أعهد رجلاً بمقاسات بازير، لو امتطى حماراً، لفاز حتماً بالجائزة الكبرى".

جيوش النوم تهرع إلى عينيّ في دبيب ثقيل. الصور السرابية تترادف أمامي كسيل من الأشباح. أحاول قدر الإمكان مجاراة جفني،كانت الدعوة ملحة إلى أخذ طاكسي بثلاثين أورو، حتى أصل إلى شقتي في بيارتز البعيدة بست كيلومترات من بايون. شقتي الصغيرة المطلّة على البحر كانت كهدية من قوائم الخيل، اشتريتُها بعد الفوز في الجائزة الكبرى. المبلغ مغر حينها ١٥٠ألف أورو. لم أنس هول اللحظة، عيناي تتراقصان على الأرقام الخمسة، لا داعي لذكر الأرقام حتى لا يشفي غليله من به سقم البحث في الأرشيفات والبحث في ركامات أرقام الحوافر. الشمس تبدو غريمي الأول في هذه اللحظات. الست كيلومترات من بايون إلى شقتي كصراط إلى الجحيم. الصهد والجفنان المثقلان متاهة تشلّ الأفكار. تتهادى صور غريبة أكثر هذه المزة، المخلوقات الأشباح تتسع عيونها وخُطمها، يبدو أن مشاكل ضغط الدم تعاودني بين الفينة والأخرى. أتمزد دائماً على نصائح الطبيب بالنوم الباكر، وأخذ حبات "كوبرام" التي تُهدّئ من غليانه. الليل حقًنا في استثمار الأحلام، ونزع السكينة المفقودة من هدوء مبجّل، يرخي أساريره. وحشة قاتمة تهاجمني بمجزد فتح باب شقتي النائية إلي هذه الأيام. الحب المَرضي يُرغمني على أن ألزم مونيكا سواء في بايون أو سان سيباستيان، وأحياناً في البيت الريفي عند والدتها تشيشيلي، حين

يخنقنا روتين المدنية المعهور باستلابات الانخراط الفدمج عنوة في إتلاف مريب. كنتُ أتمرد على هذه النُظم والأنساق من خلال ترتيب شقتي، أجعل منها حالة شاذة، حتى أكسر هذا الاستلاب المقزز. الأسرّة لا تروقني، أبسط المفروشات التي تضفي رونقاً تحتياً تسرح معه العيون؛ البطانيات الشخماء والسجاجيد المنقوعة بألوان فاتحة تهيم بها الروح قبل العين، وحصائر تتناثر بروائح الدوم والسمار، ونمارق مصفوفة في تلوينات زاهية فحشوة بالحلفاء. تحسّ أن لكل شيء جذراً يدبّ على الأرض، فتنبهر عيناك وأنفك بروائح المبخرات المزينة بتشابيك نحاسية، تدفع روائح الصندل أو الجاوي المكاوي والفاسوخ والحرمل والشبة، وأطباق الدوم عليها؛ الريحان والورد الجافّ والقرنفل والخزامى، وفي أطباق أخرى؛ الحناء والسواك والكحل في مكحلات خشبية مسدودة بمراودها، وفطلية مقعورة بالعكر الفاسي،كأنك تستعدّ لإقامة عرس تقليدي، وعلى الأرجاء، أيقونات شرقية مصنوعة من الجبس، حتى لا تهرب من الخلاص الشرقي في جغرافية، قتلتها أساليب الفكّنة؛ غزال بين اللون الأحمر والبني بقرنين سوداوين، تقف على دعامة بنية كلون التراب. قرب الباب يداهمك حصان أبيض بسرج أسود منفق بلجام بني، يرفع قوائمه الأمامية. أما في الوسط من فوق الفرفة التي أهيم بها حباً، فتُعلّق اللوحة الواحدة المتجذّرة في عمق طفولتي. كلّما فتحتْ عيني عليها، أعلم أنني ما أزال بخير: آدم وحوّاء وهما يخصفان عليهما من ورق الجنة قرب الشجرة التي تسبّبت في غصة تفاحة آدم إلى يومنا هذا، والحية الملفوفة على الشجرة، وبالقرب منهما صورة عالم بغداد عبد القادر الكيلاني أو الجيلالي وفق منطوق أهلي، يترنّع أمامه سبع، وتبدو وراءه بغداد، يفصل بينهما نهر دجلة، كأن الشيخ ينأى عن المدينة إلى الخلاء هروباً من ترف العباسيين. وتسوقني عيناي بعد أن أتجاوز صوراً أخرى، كنتُ أتهرّب منها ربما لسبب نفسي، لا يحقّق الرغبة المطلوبة، فتقع عيناي على نبي الله سليمان في جنده من العفاريت برؤوس شزيرة، تمور بالقدرة على خلق المعجزات، وإرضاء نبي الله، وأصعد بعد ذلك إلى سفينة نوح الصفراء الممتدة على الأزرق اللامتناهي، تتبلى الناجين من بني آدم ومن بني الحيوان في ترقّب، تغلب عليه المعاراة أكثر من اليقين. وفي الخارج على شرفات النوافذ مغروسات متوسطية خاصة (اللواية)، يعجبني هذا النوع من اللبلاب، لقدرته الفائقة على الانتشار، وتفننه بسرعة مشكلاً غمداً لكل شيء. وتتباهى كذلك مغروسات الزين والبهاء والبابونج، وبالقرب من الباب الرئيس؛ أشجار الموز المغلّفة.

أخذت دوشاً بارداً، حتى أنتعش، وأطرد الحرارة والوهم. ابتلعت قرصاً للتخفيف من الضغط، رامياً بنفسي في شوق لنوم نهاري حاز على أديم البطاطين الثقيلة. أفيق مرعوباً، جافّ الحلق، الغزق يتفصد مني كالمحموم، خيوط الشمس تتسلّل بين فجوات المفروسات مائلة على وجهي. والدي مبارك تحوط به مجموعة من الذئاب، يتوسلني أن أبعث لوالدتي بعض المال، لتفك رقبته من هذه الذئاب.

٩) فركاس طابروس أو باريس

لم نستطع رفض طلب الشيخ البيروفي فركاس طابروس في قضاء نهاية الأسبوع بباريس، يعشق باريس حد النخاع، قبلته الأولى بعد أن غادر البيرو لدراسة الطب. يعلم ملياً كل كبيرة وصغيرة عنها، كأنه يخطو في مدينة كوسكو مسقط رأسه، يمشي محاولاً تعديل قامته بمشية تليق بالمعلّم المتيقّن من رد فعل تلامذته بإيماءة أو ابتسامة خجولة، يلتفت إلينا بعد أن قطعنا الرصيف للدخول إلى مقهى الليب في سان جيرمان:

ـــ اسمعوا، أيها الأطفال، الذين يعيشون الخزينة دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة وضعها على أرض ثابتة، من هذا المكان بالضبط، كانت تُناقش قضايا وحاجات الدول إلى العدالة الاجتماعية. لا أخفيكم سرّاً أنني كنتُ سعيد الحظ حين أجالس كبار الثوار بهذا الركن. سنوات الشباب الأولى لا تُضاهى. الحماس المتوقّد كالأنبياء. نمعن النظر ملياً في الطروحات الجديدة، وننكبّ على دراسة المواقف بجدّية منقطعة النظير. يلتفت إلينا فركاس بعد أن أشار بعينيه المملوصتين كحرباء:

ـــ هنا كان يجلس المؤسس الحقيقي لحركة "مير" الرفيق لويس دي لابوينتي أوتيدا، أتأمله الآن واقفاً بحسّ، يغلب عليه طابع المرافعات، كان الشوكة العالقة في غصة الجنرال أودرنيا. عرف السجون والمنافي، لكن خبرته بخفايا الحياة وأسرارها زادته صلابة، إنه ابن مدينة تروخييو الباسلة.

يفتح فركاس عينيه الضيقتين، ويشرع في تقليد زعيمه، يلفّ بيده في حركة دائرية كأنه سيخاطب حشداً من الجماهير:

"الثورة الحقيقية تنبع من الذات، بعيداً عن الدعامات الجاهزة التي تتبناها المزاعم السوفياتية".

يرشف دي لابونتي من طاس قهوته رشفة عميقة، فيومئ إلى الدينامو المهدي بتبركة، كأنه يرغب في إقناعه في هدوء تام:

"إننا نرى في تروتسكي الضربة القاضية المزعزعة لكيان الشوفينية

الستالينية المتقوقعة على تمجيد موسكو فقط. ولعلّ التجربة الكوبية، كما تعلمون أيها الرفاق، هي التجربة الحقّة للأمم الاشتراكية، فقد فكّر كاسترو وغيفارا في صنع الثورة الخاصة التي تليق بمقوماتها الاجتماعية والجغرافية. ونحن كذلك في البيرو لنا خصوصيات، لا يمكن مقارنتها بالخصوصيات السلافية والقوقازية، وأنتم كذلك في المغرب ستكيفون الثورة مع روحكم المضبوطة بتماسك اجتماعي منذور بالخصوصية الشرقية".

يحزك المهدي رأسه في ثبات، يغلق عيناً، ويفتح عيناً على سبيل المقاربة، يلفّ دي لابوينتي يديه بطاس قهوته مستجدياً حرارته:

"إننا شعب الحركة الإكزوتيكية الخزة المطواعة التي تتبلى خزئة وعدالة أكثر".

يُنعم فركاس النظر ملياً في المبسم العاجي لسيجارته، كأنه يراه للمزة الأولى، يزرع السيجارة وسطه رامياً بالعلبة وسط الطاولة:

ـــ تعمّدتُ أن أخصص لكم هذا اليوم في باريس، حتى أفتح عيونكم على التاريخ الحقيقي. التاريخ ينزّ في حياتنا كورم قيح، لا نستطيع الشفاء منه، يشير إلي بأصبعه:

ـــ أنت، أيها المغربي، أعلم ملياً أنك لن تصل بكل معرفتك إلى تجسيد حقيقة زعيمكم الدينامو أقصد المهدي بنبركة؟

غمغمتُ بصوتي في غرغرة محاولاً إدراك الموقف السمج الذي يُكبلني بعدم الدراية الكافية:

ـــ قضية طالها اللبس، كل مزة نسمع حكاية، حتى القضاء الفرنسي لم يُفلح في ضبط هذا الملف بالشكل الواضح.

رمقني فركاس بنظرة جبارة. مونيكا تفتح عينيها قدر الإمكان، كأنها تشجعه على المزيد من التوضيح، يضع المبسم دون أن يُشعل سيجارته، يُطقطق أصابعه كمسافة بين الصمت والجواب:

ـــ اسمع، أيها المغربي الكسول، هذه القضية لا يطالها اللبس، الدينامو كان من أبرز قوّاد الثورة في العالم، يا خسارة العالم في هذا المهدي، لا يمكن أن نقف عند الجوانب الخلاقة لهذا الزعيم السياسي والفيلسوف الرياضي إلا إذا وقفنا عند قيمة أفكاره في تجسيدها من الذهني إلى

العملي، فما أزال أحفظ عن ظهر قلب قولة شهيرة، يُشنف بها مسامعنا دائماً: "الثورة بدأت سياسياً، ويجب أن تتم على الصعيد الإداري والاجتماعي".

لا يمكن أن ننسى عندما يعود المهدي من بقاع العالم من أجل الدفع بعجلة القوى الثورية والتوحيد بينها، حينها استشعرت المخابرات الأمريكية والموساد خطورته، دبّرت عملية خطفه بمساعدة الداخلية الفرنسية وكذلك غريمه التقليدي أوفكير(أوفقير) في٢٩أكتوبر ١٩٦٥، فقد كان يُهيئ لمؤتمر القارات الثلاث بهافانا في يناير١٩٦٦. ما تزال قضيته بعد مرور هذه السنين معروضة على القضاء، عن أي قضاء سنتحدث وفرنسا هي من تكلّفت بخطفه؟!

طلب منا فركاس أن نسير بمحاذاة السين، أعلم أنه لن يدعنا حتى يرصد لنا تاريخه بما فيه الكفاية بحثاً عن المعنى المتلاشي في كل حارات باريس المهجورة ببصمات من مزوا من الزعماء والقوادين على حدّ سواء. كنا قد قطعنا جسر سان ميشيل، أدخلت مونيكا ذراعها في ذراعي، وقبلتني قبلة على عجل. الشمس تلقي بدنانيرها الذهبية على باريس. الباريسيون يقدّسون الدفء، فتنجلي الرغبات المؤجلة المقرورة. السين يجري منذ الأزل، يشهد على أحلام كثيرة، بعضها يتحقّق، وبعضها يخيب. العشق والقُبل يجريان تبعاً للصبيب، وفركاس يحاول أن يتقيد بالماضي بين الطب والنضال كرشوة، ينفح بها موتاً وشيكاً، يمضي بخطوتين، ثم يلتفت إلينا:

ــ أحسّ أن أمعاءكم تُبقبق من فرط الجوع، سأدعوكم إلى مطعم تركي صغير، سأكون طيباً معكم للغاية، محرّكاً تمسّككم الاجتماعي بالشرق المفقود، سنأكل أطباق "الشورما" عند هكان ساريز. أوف، لم يبقَ من هكان إلا المكان. هذا المطعم متوارث أباً عن جدّ،كنا نرتاده بداية الخمسينيات، لننعم بطعم التوابل الحريف، وبعدها نشرب شراب "البوخا" شراب اليهود التوانسة المقطّر من التين. المطعم بالفعل كان صغيراً، يعجّ بالحركة وصرير الأسنان كخلية نحل. الندل في أزياء تركية مبهرة، بسراويل قصيرة، وأقمصة مكوية، عليها صدريات، وعلى حواف جيوبها الفوقية مناديل حمراء مثلّثة، تطل كورود، وفي فتحة الزّر سلسلة فضية منتهية بساعات جيبية، يتعمّدون إخراجها مزة مزة، الرؤوس تحفها طرابيش حمراء، عليها أهداب سوداء من الخلف، تشعر كأنهم سينخرطون في رقصة الدراويش الروحانية. مونيكا تأخذ لهم صوراً مسروقة، هذه عادتها في

رصد الظواهر المفاجئة. نعود أدراجنا إلى الليب. كنا قد جلسنا قرب طاولة الزعيم المهدي بنبركة هذه المزة، تضيئها انقلابات شمسية في خيوط ممدودة من النافذة الفوقية. ينحنح فركاس بكخة مائلاً بفتح علبة السكارين في طاس قهوته، يشير بعينيه من جديد صوب الطاولة، يثكن برأسه في حركة حانية. مونيكا تشرب بيرتها، وعيناها تشيان برغبة جنسية طافحة، تضع قدمها على قدمي، وتحزكها بشكل يفتح دولاب الهفة، تمرر لسانها على شفتيها في عذوبة، تخالها في لقطة من لقطات الإغراء الاستفزازي، يردف فركاس:

ـــ أنصتوا، أيها الأولاد التعساء، لم أكمل لكم بعد عن أصدقاء الثورة البيروفية، الزعيم الثاني لحركة "مير"، يضع يده على الكرسي المقابل:

ـــ هنا كان يجلس غييرمو لاباتون بوجه صارم، يتطلّع إلى بيرو اشتراكية، هو من كان يتكلّف بجفع الرفاق، وبعثهم إلى كوبا قصد التدريب على حرب العصابات. كان معروفاً بنضاله منذ إضرابات ١٩٥٢بجامعة سان ماركوس، حينها تعرّض لأبشع طرق التعذيب، هو من دلّني على دي لابويتي، كنا نلتقي بين الفينة والأخرى في الحي اللاتيني، وبعدها أصبحتُ الطبيب الرئيس للحركة.

يزدرد ريقه إلى الوراء، فيحدث صوتاً بلثته، يحملق بعينيه ملياً في الواجهة الخارجية لليب، يرشف رشفة من طاس قهوته، يأتي عليها بالمزة، يعاود طلبه في طاس آخر، هكذا يومئ للنادل الأشقر بشعره المصفوف على شاكلة جيمس دين، والثابت بدهن الشعر، يثكن على الطاولة بإلقاء ذراعيه كالكلب:

ـــ لا أعتقد أن البيرو ستعرف درساً للخلاص كما كنا نراهن، ويبدو لنا آنذاك، نتسلّل خفية بعد النجاح في التدريب بكوبا عبر جبال الأنديز الوعرة، بين الفينة والأخرى، كان يزورنا كاسترو وغيفارا ببزّتهما العسكرية بمعسكرات التدريب، كأنهما لا ينامان قط، فيقول كاسترو وعلامات الانشراح بادية على وجهه:

ـــ أعلم أنكم ستسودون، أيها الشجعان. الشرارات تقدح من عيونكم الجائعة للتحرّر.

لحظتها شرعنا في العمل الحقيقي المتعب جداً؛ تعبئة البسطاء من الناس، فهم ملح الثورة، الدعامة الثابتة لتبني الوعي الجديد باستعادة

الكرامة. لا أنسى كيف كان الفلاح البسيط يكشف عن أسنانه المنخورة، ونحن نؤكد له أن الثورات في العالم تُقام باسمه.

شرعتْ خيوط الشمس الحمراء تميل في الأفق الغربي معلنة دور الغريم الأسود القادم بعد لحظات، لتخرج باريس من أجواء العيون إلى أجواء الصخب واللذات الحبيسة طيلة الأسبوع. باريس امرأة شهوانية، لا تنطوي على أسرار، يكفي أن ترفع بصرك، لتجد من يؤنس وحدتك، ويمزغ سريرك. العيون تقدح بلهيب الشبق. باريس جنة المتاهات، هكذا صال فكري بعد أن شردتْ عن ثورة فركاس طابروس، تصل إلى أذني:

ـــ تطلّب هذا الانخراط سنين قليلة. البسطاء لهم رغبة أوفر في تغيير العالم، حينها علمنا أن وقت المواجهة مع الحكومة قد حان.

فركاس يرفع يده معتذراً، داء السكري ينفخ مثانته دوماً، يدب إلى التواليت، كأنه على وشك أن يبلّل سرواله. تضع مونيكا يدها على فمها مدارية ضحكة مجلجلة بنزوعات استبطانية طفولية، كما يصادف طفل شخصية ساذجة في سلسلة الرسوم المتحركة. ثقة سياح يتناوبون على التقاط صور بطاولة الدينامو المهدي بنبركة:

ـــ وجوه مسلوبة للحظة تاريخية، منفلتة من كتاب، لم يُغلَق بعد. هكذا هي باريس، تحافظ على انوجادها الذهني أكثر من معالمها الحجرية.

هكذا تُعلّق مونيكا.

فركاس يرفع رأسه بإيماءة، توحي بالعودة إلى صلب الموضوع، يتأفف تأففات طويلة كمدخل لاستكمال أحداث ثورته، يضحك ضحكته الخبيثة المشوبة بسعال خفيف. الصدر يتحرك في اهتزاز نحيل:

ـــ أيها الأطفال، لن أطيل عليكم كذاك الثرثار المحب للاختصار، ارتأينا إلى أن نفتح ثلاث مراكز لتبني العمليات، الأول بمدينة كوسكو، مدينتي الحلوة الجميلة، والثاني في بيورا، والثالث كان على السفح الشرقي من جبال الأنديز، على مشارف غابات خونين فوهة السعير، حينها ذقتُ طعم الطب الحقيقي، أقول لكم بصراحة أطباء الميدان كالجن، لا يعرفون للراحة طعماً. النضال الحقيقي يبعث الحيوية، ويصنع القذز الجديد لأشلاء، كان من المفروض أن تواري التراب، أهرول بين كتيبتي "توباك أمارو"و"ساتيبو". لم أنس الجثث الهائلة عندما قمنا بمحاصرة الخزش الأهلي. كان الغروب يومها ساحراً جميلاً، ونحن ندخل قرى ومداشر عذة،

تجاوبات انفجرت لتوها، نحش بالشجر يفتح ذراعيه، لتسهيل عملية ثورتنا المجيدة، فيهتز الجميع بضحك قذر عندما يشرع الشيخ باتسيس ليماس في أغنيته التي نحفظها عن ظهر قلب:

القنبلة جميلة أحياناً

حين تشتت مؤخرة عدوك

بيلاوندي يلف مؤخرته بخوذة نحاسية

لكن القنبلة كانت جميلة للغاية هذه المرة.

يغرق في سهومه، تنفلت منه حشرجة مصحوبة بدموع سرعان ما سيعلي من نحيبه. الأنوار تقتحم باريس كعروس مستبشرة بألوانها المزركشة. تقوم مونيكا تعانقه في وداعة، لتحتوي لحظة تصزمت بفعل ماض، يقتل الأحلام اللذيذة، يصبح حينها الوطن عاهرة، تتنقل بين العديد من الرجال. الضوء يرسم أشكالاً عليهما. فكرث حينها؛ أن البكاء هو ذروة الفعل الإنساني، البكاء له ألوان عذة كهذه الألوان التي تلف عيني وعيون فركاس ومونيكا . يرشف رشفات خفيفة من قارورته التي لا تفارقه بفعل المرض، يمسح دموعه ومخاطه في الوقت نفسه، يطوق رأسه بيديه معاً، مهمهماً بكلام، لا نكاد نسمعه:

ـــ الحقيقة، أيها الأولاد، لا يمكن أن أحدثكم عن نهاية الحلم، رغم مقاومتنا الشرسة، استخدم النظام الطائرات العسكرية، محقت الكل، تم إقبار مداشر وقرى برمتها، بدعوى أنها تساعد الثوار على الاختفاء، وتسهل تمرير الأسلحة. أبيدت ميسابيلادا. لا أعلم هل خذلتهم يومها؟! فقد كنث في مهمة سرية إلى كوبا، تتوقف على توفير المعدات والأدوية خاصة المضادات الحيوية للأمراض التنفسية، حيث بدأ يتفشى داء التبيركيلوز، بسبب العفونة والرطوبة، لن تستشعروا هول صدمتي، وأنا أتابع الخراب عبر شاشة التلفاز، حينها اتصلث بأحد الأصدقاء، فرتب عملية عودتي إلى فرنسا، وصلث مطار تولوز، استقللث القطار الأول الذي صادفته أمامي، وجدث نفسي في الباسك الجميل القريب من بؤسي الثوري، لحظتها قطعث صلتي بكل شيء يتعلق بالبيرو،كنث أسمع نتفاً عن الفيلق الأخير لغيير مولوباتون الصامد في الغابات المرابضة لنهر سوتزيكي. ضاع كل شيء. ضاع الحلم. ضاعت الثورة.

هم فركاس واقفاً، قفزث مونيكا، لتساعده على ارتداء معطفه الأسود.

سرث نسمة باردة، يفتح فمه بابتسامة خرساء، يتوسطنا، فيدخل يديه في ذراعينا:

ـــ بعد هذا الجرد التاريخي، يمكن أن أقول لكم: سأدعوكم، أيها الأولاد، إلى قاعة أولمبيا، حجزت ثلاث تذاكر مسبقاً. أوه، أحس كحمار قضى سحابة يومه في عملية حرث مملّة، وبادرته نوبة التمزغ المسائية، حتى يتخلّص من التعب.

تعود باريس إلى سابق عهدها متصالحة مع ذاتها. وقع الخطو يؤكد ذلك. باريس الجن والملائكة.

باريس الكوزموبولتية.

باريس الوجوه المختلفة والمنحوتة بتقاسيم كل القارات.

تحس أن باريس أعادت تقويمها بالشكل الذي يليق بالإنسانية.

١٠) بار الدكالي

تسلّلتُ من فراشي في الصباح الباكر، هروباً من جحيم الثورات الفنسية لفركاس طابروس. تركتُ كلمة صغيرة على طاولة غرفة الفندق:

"صباح الخير، مونيكا، سأرمي بنفسي في باريس الأخرى القريبة إلى نفسي.. يوم سعيد.. سأفتقدك، يا جوهرتي".

رغم إقامتي الطويلة في إقليم الباسك، أحسّ أن أذني لم تتمرّن بما فيه الكفاية على فرز الأصوات، لم أستطع نسيان انجراف اللغة إلى مواطن المشاعر، تبقى لأصوات الولادة عذوبة تضفّنها أغاني أحياناً صادحة سعيدة، أو همهمات مشوبة بحزن الاغتراب والفقد. أداري خيبتي بإشعال سيجارة كمال بدون فيلتر. الدخان يسرح صوب اللمعان الأوّل لشمس نشيطة منذ البداية. تبدو باريس أقلّ حفاوة يوم الأحد صباحاً، ما تزال عيونها مسلوبة لغطاء الراحة من ليلة مشاكسة بتجلّياتها الناعمة والصاخبة.

صعدتُ درج المترو، تُداهمني روائح، أعرفها ملياً، روائح شرقية نفّاذة، يعجّ بها مدخل باربيس (barbés)؛ روائح الشاي الصباحي المنعنع وفطائر مدهونة بالزبدة، وروائح أخرى تتدافع إلى أنفي محزكة لاشعوري نحو وجهات، طالها غبار كثيف.

صاح الدكالي حالما رآني وهو يفرد يديه متثائباً في حركة كالكلب لطرد كسل البدانة على باب باره. يدخل يده ماسكاً على ساعده، دافعاً بها إلى الخلف في حركة رياضية. الكلمات تخرج مكسورة، كأنه سيصعد بآخر حروفها عبر أنفه المكرمش:

ــ ها أنت، أيها البدوي، تتجوّل في باريس بدون مركّب نقص، في آخر أيامك تصبح فرنسياً، أيها الأجرب.

يعانقني ويُمطرني قبلاً، واضعاً ذراعه على كتفي، ويصيح بصوته المبحوح على زوجته جاكلين. ربما كنتُ في نظره آخر ما تبقّى من ماض زاوية سيدي سماعين، تحسّ كأنه يدرك لحظة كان ينتظرها منذ زمن

سحيق:

ـــ جاكلين العزيزة، تعالي، حبيبتي، لأقدم لك آخر ما تبقى من سلالتي المنقرضة.

جاكلين خرجت من مقصف صغير ربما تحضر بعض الوجبات، مسحت يدها على مقدمة مريلتها المشدودة على قصعة ظهرها بسمط كالفراشة. امرأة بدينة بقصة شعر قريبة إلى الرجل، عيناها تلمعان بحب، يحزك الحيوي في النفس المجبولة على الزهو، تتمايل في غنج ودلال بمؤخرة مكوّرة بفلقتين، بينهما درب صغير، تُدركه العين في أثناء صعودهما وهبوطهما. يهاجم عينيك لون بشرتها الموغل في البياض، تُقبلني قبلتين، يتصاعد عطر "أنخيلا" من ناصيتها، تلتفت إلى الدكالي:

ـــ يصلح أن يكون زوجاً لأختي بريجيت.

يقهقهان معاً، كأنهما عثرا على الشبه الساذج الذي يليق ببريجيت. جلسنا إلى طاولة الفطور المتنوعة، عليها سلاطات، زيتون، جبن، وخبز محفص، بالإضافة إلى صينية الشاي الأخضر المنعنع، يقدم لي كأس شاي مختوماً بعقد من الفقاعات البيضاء، يلتفت إلى جاكلين:

ـــ سيشرب ابن عفه، هذه الكأس، يسقط الدمعة من طيز الكلب.

يصوّب نظره هذه المرة إلى فوق وبقايا قهقهة ستموت في حلقه:

ـــ سيذكرك بكل أهلك الكلاب.

رغم الإقامة الطويلة للدكالي في فرنسا، وزواجه من جاكلين، لم يبرح عادته البدوية في الأكل، يلوك الطعام بصوته المقزز من فرط اللعاب، ويتمطق الشاي بنفس فيه زئير ممصمصاً بأسنانه. تبدي جاكلين رغبة كبيرة في أن يبقى على سجيته، تغمض عينيها كأنها تستمع إلى موسيقى روحية، فتردف:

ـــ تعجبني طريقة الدكالي في الأكل، فهو يأكل بكل جوارحه.

يهز كتفيه معبراً عن لامبالاته من القيم ومواضعات الأدب. يهجم علينا سكون مذهل كأننا سنسرح في صمتنا إلى الأبد. رنّات الساعة الحائطية هي من تؤثث هذا البياض، أتيه ببصري، أرقب البار في تبزم متجنباً حرص الدكالي على مراقبتي، وخوفاً من سوء النية التي تلازمنا نحن أبناء البلد، كأننا نعد رأسمال والأرباح، ونصوب سهام أعيننا الحسودة والحقودة،

فيحل الخلاء بالمكان، وتسكنه البوم. كراسي مغبونة، بعضها أعرج، يبدو أن الدكالي يعلم أحشاء جيب وجوه الخير ـــ الاسم الذي يطلقه على زبائنه ـــ صينيات وأباريق يتيمة، يتمسك بها بدعوى الوحيدة القادرة على إعطاء كأس، تسقط الدمعة من طيز الكلب، يؤكد لي ذلك بعد أن يلطمني بكوعه، وهو يفرغ الشاي بنشوة عارمة:

ـــ علي باليمين، ستشرب هذه الكأس أمام حماتك بوجه أحمر، لا يطاله الخجل.

على الكونتوار آلة ضغط القهوة بعصارات يدوية، تُخرج القهوة السوداء بعد طحن حبات البن في ماكينة لها أزيز كبيكوب ولد العابدة، الأنابيب المعقوفة تعمل على فوارن الحليب ببخار كمدخنات القطارات القديمة، وعلى بعد متر، توجد كذلك آلة ضغط البيرة، تنهمر باردة من أنبوب صغير مزبدة برغوة، يسيل لها اللعاب، وفي الجانب الفوقي أعلى الكونتوار مصطبة، عليها مشروبات روحية وغازية، النبيذ الأحمر هو الطاغي، تحس به يسود ويحكم في ديكتاتورية، يزكيها الطلب الكثير. وفي جانب الإفريز الإسمنتي الفاصل بين الكونتوار والباب الصغير، صورة تتوسط إطاراً مذهباً لجاكلين والدكالي، يتبادلان القبل قرب الكوليزي بروما، تبدو جاكلين أجمل ما عليه الآن، بشعر أشقر طويل، ووجه دائري بض. الدكالي لم يتغير كثيراً. موسطاشه المدبب الأسود، أصبح أبيض بفعل تصرّم الأيام. القامة ما تزال مشدودة العضلات، وتبعث على رهبة، يحتاجها حي باربيس مجمع البلاء، وبالقرب من الصورة لوحة عليها عين وعقرب، ويد فاطمة مختومة بعبارة :"الحسود لا يسود.. عين الحسود فيها عود".

القط المعاشي هو المنافس الوحيد للدكالي، أحياناً يتحوّل اسم البار من الدكالي إلى المعاشي. قط مدلّل من السيامو يعرف قدره، يرابط بكرسيه الخاص قرب الكونتوار على سجّاد صغير، تلف عنقه أيقونة كالجرس، تؤشر على حركته أينما دبّ. علّمه الدكالي شرب البيرة، تنتابه نوبة من الخدر اللذيذ، فيعبث بسجّاده، ويعدو في كل أرجاء البار بحثاً عن منبع الرنين الذي تخلقه أيقونته. يتعالى الضحك والصخب، ثلاطفه جاكلين كأحد أبنائها؛ فقد أثبتت التحاليل أن الدكالي مصاب بالعقم، يسخرون منه خفية، فيقولون:

ـــ القامة كالبغل، والذكر كالفأر.

رغم تجريبه لجميع العقاقير الطبية والطبيعية لم يفلح في قذف

حيوان منوي يخترق رحم جاكلين. جاكلين تصلّب رحمها، إنها الآن في سن الخمسين. يستمز التفكير في الخلفة حذ البكاء، تُقبله جاكلين قبلة محمومة سرعان ما يعود إلى طبيعته بصيحة محشوة بنبرة اليأس، يطلب من أحد وجوه الخير أن يلتزم بالأدب، أو سيكسر له تلاوته قاصداً مؤخرته، بعد أن يشكلها في حركة بذيئة، فتعالت وجوه الخير بضحكات مجلجلة مصحوبة بالتصفيق والصفير. هاتفي يرن بموسيقى الصلصا، يصلني صوت طاطا مارتين الشجي:

ـــ أين أنت، أيها الولد العاق؟ يبدو أن دعوات والدتك قد حلّت بك.

أخبرها في ملاطفة وغزل بأن حبيبها في باريس مع عاشقاته، يشرب البيرة على نهودهن، يتعالى ضحكها، يكاد يخرج من الهاتف، ينقطع الاتصال بيننا دون سبب، أسمع رنة طوووووووط، لتختم الرنة بطيط، طيط.

اكتسحت الشمس كبد السماء، وانهالت تصفع باريس بأشعتها العمودية. بدأت وجوه الخير تذرع بار الدكالي، على الأقل، فهو يوفر الدفء والاحتماء الاجتماعي والوطن الصغير المفتوح في وجه العادات، والمنحاز لرصد الأخبار الطازجة أفضل من السفارة المغربية المنشغلة بأعياد الوطن وحلوة "غريبية" و"كعب الغزال" بين الفينة والأخرى . الآن أحس أن أذني ترتوي بشغف الكلمات البذيئة والمقذعة من أفواه وجوه الخير. يفرد أحدهم ورقة من لعبة الورق على وجه غريمه، يردف:

ـــ يداك في هذا، يا فؤاد مسيو فران.

مشيراً إلى ذكره بعد أن كوّمه بيده اليمنى، فيتضح رأسه معزولاً كحمامة تنقر حبات القمح، يبدو الغريم مستسلماً للمهانة، وتحس أنه بالفعل يمتهن القوادة من خلال عينيه اللتين ترمشان باستمرار ككلب ضامر، تداهمه مجموعة من الأطفال الصغير.

دخلت السعدية الحريزية بعينين متوزمتين، من فرط السهر، والصوت المشروخ كالمغنيات الشعبيات. الوجه يبدو متعباً رغم تزويقه بالأحمر والأخضر، إنها قحبة الكل، هذا ما أكده لي الدكالي بحركة من يده، لافاً بها على سائر وجوه الخير، وحين يروق لها واحد من وجوه الخير تُصدر منبهاتها المحمومة كشبكة صيد، جاسّة نبض الاستجابات، قد تماري في عدم تلبية رغبتها، فتقول وعيناها على صاحب كيتها بلكنة أهل الشاوية:

ـــ (والله وماهواني لا حواني).

لم أعهد امرأة مثل السعدية، تتباهى بحبها للذكر، وتتمادى في حكاياتها الكثيرة عن أشكاله وطبيعته كالطويل والقصير والغليظ والأعوج والمفلطح، وتتلذذ بالوضعيات المختلفة، تعشق أن تمتطي الرجل حتى تُرشده إلى نقطة متعتها.

يداهمنا صوت ينبع من رحم دخان يجثم على السحنات بعد أن مهد له بضحكة خبيثة:

ـــ من هو الذكر الأجود فيهم، يا زينة البنات؟

شفطت السعدية رغوة البيرة المتمطقة بالكأس في انحناءة بشفتيها على الكأس بحركة مسرحية، رفعت رأسها ماسحة بظهر يدها على شفتيها، مائلة بحبل النظر صوب فوهة الصوت:

ـــ الذكر الأجود فيهم هو ذاك الذي أخرجك من كوة أمك، يا رأس(القلوة). ارتج البار في زلزال من الصخب والضجيج، والقهقهات الخارجة من حلوق وكروش متعتعة بالشكر. انبعث صاحب الذكر الأجود من غيمة دخانه، راقصاً مكوراً عجيزته يميناً وشمالاً على مشارف وجهها نكاية فيها، تلطمه السعدية بوسطى يدها على عجيزته، ينط في حركة كالقرد، ويتأوه بتأوهات الفتح المخبول كشغل الفتيان الشطاحين في لعبة رهان الأرقام، يقبل رأسها، ويكافئها بسبع بيرات، عليها قطرات ندية تؤكد برودتها المحببة، وطبق من لحم رأس عجل على حسابه على خفة فمها ودمها.

تسلّلت من الجو الدكالي لبار الدكالي، ولا أحتفظ سوى بأيقونة القط المعاشي ترن في أذني من فرط التعتعة. تتدافع الصور إلى عيني في سعادة رمادية، ويصبح لكل شيء قيمة متسابة من مركز المخ، أو مركز باربيس، تبدو المغربة مقلّمة الأظافر، لا أعلم لماذا أزّ هذا التشبيه، قد ندرك لحظة الدهشة الدفينة المهجورة بترتيبات نفسية، ليس بدافع التجلّي الواضح، ولكن، بفعل تضمينات السيحان المقرور ببرود لا ينبع إلا حين يرسو مركب الانوجادات على سواحل موشومة في الذاكرة غير النشاءة.

أحسست بيد، تربث على كتفي في غمرة السهو اللطيف، كأنها تصلني من عالم آخر. الصوت ينفذ بلكنة ونبرة تبدو أليفة للغاية:

ـــ (اللي بغا حمامو يشوف كدامو)

١١) تشيشيلي

عزيزتي مونيكا، أو خروفتي الجميلة، كما كنتُ أدعوكِ دائماً، لا أعلم كيف سأرتب نفسي للقاء ضيف ثقيل على القلب، الفرار منه لا يجدي نفعاً، لا يمكن أن أحكي لك كالمعتاد حكاية الفارس الذي يعدو على حصانه الجامح، فازاً من الموت بغية إخفاء جسده. الكل يعتقد أن الموت هو الانقضاء الرهيب للجسد، فنسرح بعيوننا صوب الجثة في رؤية ماذية ممدودة فقط. المسكين حين أنهكه التعب على مشارف قرية الأمان، وجده بشعاً، يحتسي كأساً، تتراقص داخلها أشياء في لمعان مقيت.

لا أحب أن تتموقع رسالتي، أوخاتمتي ضمن لبس الوصايا، أعلم حينها أنك ستخصصين جهداً كبيراً لتحليل خطابها النفسي ولغتها العصبية، بكل تأكيد ستصنفينها ضمن مرض الفوبيا الميتافيزيقية، بالفعل أنا دائمة القلق الميتافيزيقي المجبول بنزوع نحو درء حقنا في معرفة السيرورة التي يشغلها الوجود، إنه بمثابة الظلّ القابع وراء النور، يكاد يوازيه أحياناً إذا اشتد حبل الانوجاد، ومالت كفة اليقين بالاستسلام إلى الاعتقاد القلبي، وقد أؤكد لك، عزيزتي مونيكا: أن العلم أحياناً يبقى عاجزاً عن الإحاطة بقوى روحية ونفسية تجثم علينا، سنحتاج إلى القلب لسماع نداءات الآخر فينا.

كنتُ دائماً أختلف مع والدك احميدة حول موقع الأحاسيس، يظلّ متشبثاً بالكبد على أنه الموطن الأصلي لتحريك بواعث الشعور والتحفل، فيقول:

"يا للكبد الحزى".

كلّما قبل طفلاً في الحي، أو صادف مجموعة من الأمهات ينتظرن أطفالهن على مشارف أبواب المدرسة، وحتى لا أنزلق إلى مهاوي الجراح القديمة، ويجرفني تيار تهويمات يظلّ متناثراً بين المهانة والتمزق، بين العشق والندم، ثقة لحظة لعنة العقاب الخفية تؤجل دائماً المضي عبر ذاكرة جديدة، تغفو، تشفع، الذاكرة غير نساءة رغم مروادتها بالتمني والأحلام. لا أعتقد، يا مونيكا، أن شغل الحواس قد يتعطل، أو يبادر مع

أول إشراقة للشمس حين تتسلّل خيوطها من نافذتي المطلّة على ما تبقى من عمري. ثقة جانب يبقى مقروراً. الموت لا شغل له سوى تبني فكرة الانقضاء، كنتُ أمني نفسي بأن أرى حفيدي ينقل حقي من تاريخي المنتظر، ويحتفل بوجودي في غيابي الأبدي. هههه، سيسأل حتماً كيف كانت جدته تُعاقبك، أو تحفزك أحياناً، سيعشق صورتي، وأنا أبدو شبه عارية على ساحل بيارتز في الصيف اللاهب، لا، لا، سيحب أكثر تلك التي أعبر فيها نهر لادور في مركب السيد إبنياكي صاحب الأنف الطويل والقبعة العجيبة. لا تضحكي، يا مونيكا، فأنا لا أسعى إلى تبني مجد زائف. الكل يتمنى أن يخلد في هذا العالم، ولو بحركة بسيطة؛ صورة قرب نصب، أو مع فنان قدير، أو ممثل جيد، أو... الآن أدركتُ أنني سأموتُ وقد فاتني الكثير من الحب. الاكتناف يحتاج إلى حيوات أخرى لفهم الانسياب الناعم لماء الحياة المنبعث من فوق إلى تحت، وعجن الظاهر بالخفي في ارتباط واحد أكثر إيلاماً مع متطلّباتنا، قد تبدو فكرة ساذجة، لكنني على يقين أنها ستريح البشر من شقوة البحث الدائم عن الحلقة المفقودة، سيتوخدون حينها. هههه، ويموت السياسي غيظاً تاركاً حقيبته ينخرها الدود والضياع، في الحقيقة كل ما سأسرده لا يعكس الميولات الخبيثة. الرماد لا يخبو يحتفظ بحقه في الشرارات، كلّما مزت ريح الذكرى.

الآن أمد عيني عبر الأفق اللامتناهي، أرى خروفاً يداعب خروفة في قفة التلقائية الطبيعية التي لا تحتاج إلى فرز مكنونات الميز والاختيار. التموقع خارج الرغبات الآنية يلجم الاستبطانات، ويعيق المسالك المرشدة لمساعي الانتعاش. المسافة بين العقل والقلب تُنهك روح الإنسان المتعطشة دائماً لذروة الخلود المسكونة بلحظة هاربة، نرتادها منتشين بدبيب كهربائي، لا يمكن وصفه أبداً. آه، ما يزال الخروف ينعم بطبيعته المفتوحة على الله وعلى العالم، أما أنا، فأمزر يدي على منبع الإحساس المتصلّب، أخطف يدي في سرعة كأن أحدهم يراقبني. جلّ العلاقات المتعثرة تنتهي بالإخفاق، بالرغم من البحث عن قطر الحديد للحمتها، أعلم أنك شديدة الظمأ لمعرفة صورة والدك في خزانة قلبي، سأروي عطشك المقرون برؤية مشاكسة، حتى لا تعالجيها بطوباوية ساذجة. هههه، أنا لا أنتقص من قيمة العلم والطب، لكن تبقى بعض العواطف والقوى النفسية غير خاضعة لهما، بل يحذدها القلب بالنسبة إلي أو الكبد بالنسبة لوالدك احميدة. إن تحديد العلاقة بيني وبين والدك منهوشة لرؤى جاهزة، شظّرت من قبل رغم التغاضي عنها، قد شظّرت بين الأنا والغيرية والتسامي أحياناً، لإبراز شجاعتنا في الخوض في تمجيد الآخر فينا. الوجوه تميل

وفق اللحظة الطاغية، وهنا يمكن أن أستشهد بالعلم، فعلماء الاجتماع يؤكدون أن الذكاء ليس عملية ذهنية، وإنما يكمن في سرعة التكيف مع المواقف الجديدة. حاولنا أن نكيف الأجواء متناسيين طبائعنا الذاتية، لنسعد بعضنا، ونتغنى بالآخر فينا، لكن، مع مرور الأيام انبثق النور الحقيقي الذي يرشد كل واحد منا إلى تبني طريق الخلاص. الخلاص هنا ليس حتمية، بل يدخل ضمن الاختيارات المصحوبة بقناعات، لن تترك مجالاً للشك والعودة إلى نقطة البداية، لأننا نبحث دائماً عن الجوهر الحقيقي، لنروي عطشاً مبهماً، وتكسونا استيهامات، فنعدو وراء سراب، نعوض به الجوهر الغائب، وهذا ما يدفعنا إلى تقفي أثره الخفي. لا أخفيك سراً، يا مونيكا، تعاودني الذكرى في لحظة ما. أحتضن الصورة الوحيدة لاحميدة، كأنني أحتضن الماضي. الذكريات لها فترتها الخاصة التي تحزكها وفق مستويات نفسية، هي الوحيدة التي تعلم متى تجتم علينا. إننا عبيد للذكريات، لأننا لا نستطيع أن نحدد الزمان والمكان اللذين يحذدانها.

حاولت أن أهرب إلى قرية سوكاراموردي، إلى الطبيعة لتحجيم طريق الذكريات، إنها عنيدة بالفعل، وتختارنا، ولا نختارها.

أتمنى أن لا تكوني أداة لإعادة التاريخ، وتُصابي بعدوى البحث عن الجوهر. حمامو إنسان مقرور دائماً إلى الآخر، لا يبذل جهداً في التعبير عن ذاته. أرى من الطبيعي أن اللقاءات الجنسية فرصة لزعزعة الميولات الخفية، بالرغم من أنك طبيبة نفسية تدركين وجه العالم بنظريات مثقلة بالجرعات والأقراص والمناشدات عبر قوة الإرادة والعزيمة، فأنا أتبنى تكريس القيمة الحقيقية، التي تكمن في لحظة الانتعاش بالكلام المحموم، المتسرّب كأنين أو مناغاة أو محاورات تبسط الوجود الفعلي للإنسان، مكسّرة النفاق الموضوع بوغي جمعي قذر. أوصيك أن تُنصتي إلى حمامو في أثناء فحشه ولهاثه. الانبعاث الطفولي سيرتج في باقة منثورة حائلة كمنبهات، لأنها بكل بساطة لن تموت، فاحميدة أو حمامو لم يمت فيروسهما الطفولي المنجذب لغناء الأحراش والحقول والغابات. وقع المطر الطفولي يختلف أتيته بين الطفولة وما نحن عليه اليوم. أصوات المطر الطفولي لا تنخسف من الذاكرة، لهذا فنحن نميل إلى حب الأطفال بصفحتهم البيضاء التي لا تذعن للأقلام بسهولة، ليست مرتبطة بأصوات جاهزة كتلك التي تُفرزها الصورة التلفزية، إنها تختزل الحدث المعين الذي غزانا فيه الصوت المطري الطفولي، صورة محكومة بزمنها النفسي وإيقاعها الموسيقي الملفوف بمراقبة الزخات عن كثب، أو الجري لدرء

انوجادها، أو التمتع أحياناً باللعب تحتها، وحتى لا أترك المجال للسيحان، وتأليب روح المتعة عن غيرها، فنحن نتنفس حتماً على إيقاع فرويد برغبة أكبر تشبه الإحساس بالاغتصاب من طرف، ألبسناه صورة على التو، ليس سلوكاً شاذاً، ما دام يعشعش فينا كما يعشش عنكبوت على جدار منسي. قد أجد في الموت صورة المغتصب الذي أحلم به، سيحقق حينها التوافق والرعشة الكبرى وإيجاد الجواب الشافي للجوهر، في صورة بعيدة عن كل نظريات الظب اليتيم...

تشيشيلي التي تعشق الموت حد الاغتصاب.

"اللي بغا حمامو يشوف كدامو".

أحس بأن أذني مدربة على هذا الصوت بما فيه الكفاية، بعض الأصوات لا يطالها الباطل، تظلّ صافية، رخيمة، وشاسعة، تخترقك، ولو كنت في علبة عود الثقاب.

غمرتني سعادة مخبولة كأن أحدهم ألقى بي في بركة دافئة. هسيس الليل يُرغم الأضواء على اتساع رقعة التعتعة. تنعكس المصابيح على الأرض كنجوم متناثرة. لا حاجة لنا بالقمر، لسنا شعراء يخلّصنا الوجد والانتظار. نحن الآن في حي باربيس، كل شيء يبدو ماذياً، حتى هذا الصوت الذي لا يطاله الباطل، فيه ذبذبات ماذية، أتذكرها عنوة، فأذني مدربة هي الأخرى، لا يطالها الباطل.

كنتُ لا أستمتع بلذاذات قحاب أزمور أو مولاي بوشعيب الرداد ـــ كما كان يعشق قوله ـــ إلا برفقته، يكاد يعرف نوعية كل الفروج من طبيعة الأفواه، يجاهر بصوته أمامهن:

"هذه تصلح.. هذه لا تصلح، وهذه لا بأس بها، يمكنك أن تخفي وجهها بالوسادة فقط".

يثير اشمئزازهن، يكون سعيداً حين تمطره إحداهن بوابل الكلمات المقذعة، يقهقه قهقهته الخبيثة، قهقهة النكاية، تجحظ عيناه كفأر الدقيق متطلّعاً إلى فتحة سرواله، ليخرج ذكرَهُ القائم على أمره، يتعالى حينها الزعيق: "عايشة.. الضاوية.. مليكة.. واحد لقواد جابو الله.. نزردو على القحبة تاعت امو هاذ النهار.. نيت ماكاين ما يدار".

فك عصابة يديه عن عيني، وألقى بثقل جسده، وضغني ضماً بليغاً وصدره يتهدهد بضحكته الخبيثة المألوفة، أنفاسه مشروخة بشراب "الماحيا"، لا أعلم كيف يتقبل كبده هذه الخمرة الجبارة، التي لا تصلح إلا لصد قرّ الشتاء، وتحريك الراقد في كرش أفه!! بقايا ابتسامة تملأ وجهه، كأنه يلعن أو يشكر هذه الصدفة، يتطلّع إلي بعينين مفتوحتين إلى حدهما

الأقصى، كاشفاً عن هذا الارتياب المريب:

ـــ ابن الكلب هذا العالم.

هكذا هو المختار ولد دادة بالحق ابن وفاء. دادة هي الجدة، هي من تكفلت بالمختار منذ الأسبوع الأول عندما حل ضيفاً على هذه الدنيا القحبة ـــ كما يتهكم دائماً ـــ وفاء في أوساط الثلاثينيات تفوح منها رائحة أنوثة جذابة بأحرف الزين المرسومة على الوجه الحاز دائماً، اختارت أن تشرق بفحبها صوب بلدان البترول والمناورات حذ تقديس الفرج برغبة مذهلة، لهذا كلما أتينا على ذكر السعودية في حديثنا، يخرج ذكرة، ويتبول محركاً خرطومه في الجهات الأربع، متوهماً أنه يتبول على خريطة السعودية في ذهنه، ويقول:

"حاشا مكة والمدينة".

كنت أصاحبه إلى بيتهم، ويصاحبني بعض المرات إلى الدوار، ندخن الكيف، ونتناوب على حمير القبيلة ركوباً ونكاحاً. لا أحد يشك أننا كنا ننظر بعين الإعجاب لوفاء تارة، وبعين الواقع الضاغط على شفتيه مؤلماً تارة أخرى. الغزواني ابن ذيل الكلب العليم بأسرار الحي من الرأس إلى الرأس، يردف كلما اشتد النقاش حولها ممزراً يده على موسطاشه المبقع بالسواد والشيب:

"لماذا تتعبون أنفسكم؟! عندما يشيخ فرجها، ستحج حجة الوداع، وينتهي الأمر".

يغير موجة مذياعه صوب إذاعة لندن، يعشق رنين ساعات البيغبين والصوت الجهوري لماجد سرحان: هنا لندن. ينقر على ظهر يده في شكل طولي خط السعوط بعد أن نقر مسعطه بنقرتين متناسقتين ونقرة منفردة كرلة تعريجة عبدية، مستنشقاً النصف، وتاركاً النصف للفتحة الأخرى من أنفه الضخم، يمسح أنفه بخرقته البالية المشخة فتنفتح شهيته للكلام من جديد:

"بزيطيم ديال الجلد حسن من ورثة من جد لجد، أولاد القحاب تايخرجو رياس ومادى من خماسة طلعو لرياسة".

فهو لا يحب المختار، لأنه في نظره تمثيل صغير لطبيعة الرئيس الأول لموريطانيا، يبصق على الأرض منغنغاً تحته، يسب الكل خاصة من تهاون

في إعطاء هذه القطعة الكبيرة من الأرض لولد دادة، فيحكي لنا أن "بن يسف" هو من تنازل عن طيب خاطر لولد دادة، فهي أرض الخواء، والخواء لا يعطي سوى صداع الرأس، يبصق مزة ثانية، ويرفع يده بحركة بذيئة: "شدو في بلاكة التسعين دابا، لا شريحة لا ترمة صحيحة".

دادة تُطلق زغرودتها الصاخبة، نكاية في الكل عند عودة وفاء، عيناها الضيقتان تزدادان اتساعاً، وتزداد معهما رقعة الكحل حد فوديها، تزداد فضولاً في الحقائب المملوءة بعائدات الفرج السخي، تقبلها قبلة طويلة محدثة صوتاً يغلب عليه نعابها من فمها الحافي، ويزداد لحم فمها العاري وضوحاً حين تكشف عن ابتسامتها الدرداء، رادفة:

"أنا راضية عليك، ابنيتي، كد الزغب اللي في راسي".

كفكفت دموع الفرح بظهر يدها، تختلط دموع الفرح مع الكحل موحية بقحب مسن، وبقايا جمال حائل في الوجه كتينة شتوية، يقول المختار:

ـــ والله، إن دادة أحسن من الفكاهي عبد الرؤوف، على الأقل، إنها تنقفص العديد من الأدوار في اللحظة الواحدة؛ تبتسم، تبكي، تولول، تضرط، في الوقت نفسه.

مزرت دادة يدها على مريلتها مستشعرة فرجها العتيس في حنين كظيم، فتداهمها فكرة كسرعة البرق معجبة بوفاء:

"الفروج تموت في الدنيا قبل الاخرة، والفرج لا يسعد إلا عندما يدرك حقه من الخبط".

أطلقت دادة زغرودة ثانية، فتنفتح النوافذ، تضرب يدها إلى جيبها، وتلف برأس وفاء عدة مزات بصرتها الصغيرة الحاوية للجاوي والشبة والحرمل لمنع عيون الحسود من الغيرة، وحتى لا يسد المنفذ الوحيد المعيل. الجارة السعدية تأتي بنفاقها المعهود ممطرة وفاء بجحيم القبل، تحاول أن تعدل من صوتها بلهجة مدينية، حتى لا تشعر وفاء بعقدة التفوق، ترغب في أن تجد لابنتها حنان عملاً هناك كمرزية في السعودية، هكذا تخبرها غامزة بعينها اليسرى. تربية الأزياب في الخليج أفضل من الجلوس في البيت. الفقر يأكل أحشاء الفرج، والأزياب المحلية لا تجلب سوى البلاء.

رفع المختار أنفه إلى السماء محدثاً كرمشة، وجامعاً بشدقيه:

ـــ أخيراً خرجت من بلد الخراء، حتى تتنفس هواء نقياً.

سرحث بحبل النظر صوب الإنارة كفن يريد أن يتأكد من نفسه، وأردفث بصوت قريب إلى الهمس:

ـــ إني هنا منذ مذة.

أصدر صفيراً بين أسنانه ملتفتاً إلي هذه المرة بوجه يغلب عليه العطف، ومنكباً على فتح أزرار قميصه الأزرق السماوي إلى النصف:

ـــ علي بالله، إن الله يحبك، يا ابن الكلب حين غادرث تلك الحارة الكحلاء.

أجيبه بهمهمات منداحة في تقطع، تتخلله حركة من رأسي. وضع يده على كتفي كإيذان بإتباعه، نلج باراً لجزائري أصلع، يطوف في الكونتوار كأمير جبار. صوت الزهوانية يلعلع من مكبر كالصندوق:

بغيت حبيبي ليلة ونهار

أنا نفاجي بها المرار

يتعقبها صوت الشاب خالد:

ياالعالي كون مهني

ملي نسكر تكابلني

يجيبه صوت زبون مشروخ من فرط التثاقل الجاثم عليه بفعل الشراب:

ـــ الله عام سالي ليك، يا ولد القحبة.

يعم الضحك البار، يبدو الجزائري مستاء، كفن ظعن في شرف، يرمق الكل بنظرة واخزة، يحدث أحدهم صوت الضراط بفمه نكاية فيه لإشعال ناره، حتى يخرج عن طوره، ساعتها سيشرع في سب الأحياء والأموات والمؤخرات التي تدفع اللقطاء إلى فرنسا، وسيثني على فرنسا مستنزاً في ذكر خيراتها على الحفاة والعراة، هكذا أخبرني المختار عند الخروج من بار الجزائري، وفضل أن ندخل أقرب سوبر ماركت، ونشتري ما يلزمنا، ونكمل السهرة في بيته، وهي فرصة أيضاً في معرفة العنوان، إذا ما اشتاقت نفسك للمكوث هنا، هكذا يؤكد.

بيت صغير مرتب بما فيه الكفاية، يبدو أنها يد النساء، فأنا أعلم أن المختار ينفر من الالتزام. يهو صغير بزبنه فوناي من الصوف البلي البارد، أمامه مائدة سوداء مرتفعة، عليها مرمدة طينية مغربية منقوشة، تبدو صورة دادة في الجهة اليمنى برسم اليد، فدادة توفيت منذ مدة، والميت أولى من الحي في الذكرى، الحي لا يزال يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، وينكح، أو يستنكح، أو يستمني، وقد كنت أشك دائماً أن دادة في دار الحياة الدنيا تلاعب شيئها بحثاً عن لذة فضلت في إحدى ثنايا التينة الشتوية، وفي الجهة المقابلة تبدو صورة والدته وفاء في عباءة سوداء بوجهها الجذاب، يقول المختار حالما رآني أتطلع إلى الصورة:

ـــ لقد تزوجت من ملياردير سعودي، إنها تعيش الآن في لوس أنجلس. زارتني في الصيف الفائت، وأجبرتني على السفر معها إلى ماربيا، الحاج زوجها يملك بيتاً ويختاً هناك.

مال برأسه النشوان، وفرك أصابع يده:

ـــ يملك المزابل المزيلة من المال.

قام برغبة كسلى، تُعيقها التعتعة باحثاً عن فاتح محرم، كما نسميه لنزع سدادة قارورة نبيذ بوردو الصافي. نسمع طرقاً خفيفاً على الباب. تدخل سيدة جميلة في سن الأربعين، تميل إلى البدانة، بأنداء بارزة من القميص الكاشف، وفي الأسفل، شبه تنورة، تسمح بظهور البيكيني الأحمر الوردي المتشابك على فرجها، حين جلست قبالتي، تتأفف من الحرارة المفرطة، التي لم تشهدها باريس من قبل، راضية بحقيبتها الجلدية. بعد أن اطلعت على وجهها في مراة صغيرة بحجم الكف، متفقدة مكياجها من فرط العرق. هذا النوع من النساء أعرفه ملياً، ستوقعني في حبائلها من دون شك. أنفي كذلك مدرب على شم رائحة العهر، أنفي لا يطاله الباطل هو الآخر. هاتفي يرن، لا أرغب في الزد. سأهيم على وجهي هذه الليلة بعيداً عن مونيكا. ذئب الذكريات ينهشني. كلام المختار حتى السخيف منه له لذة، رنة، انجذاب، أحسست أنني سأنال من هذه المرأة خاصة بعدما داهمني البيكني الأحمر الوردي المتشابك بعيون كبيرة، كانت هذه هي الصورة البليغة المسيطرة الوحيدة على مخي. المسافات تزداد قرباً من كاترين، كلما ازداد عدد الكؤوس، نرغب في النسيان أو التمزغ كالحمير، بالفعل إننا حمير جميلة، نحتاج إلى المراغ والتخلص من العوالق الثقيلة. ميزان اللغة هنا غير مكلف. لا نحتاج إلى رقيب مع الطبيب فرغاس، أو

دقّة المصطلح العلمي مع مونيكا. أكتب بأصبعي في الهواء، وأتكلّم في الوقت نفسه، تصبح للغة أشكال وهمية في الفضاء، أعلم حينها أن كل الروافد تمّ سقيها، فتعجّ الخترفات والهذيانات بدون مركّبات نقص. المختار يستغلّ ذهاب كاترين إلى التواليت:

ـــ هل أعجبتك؟

أحزك رأسي من فوق إلى تحت مؤكّداً ذلك، فيقول:

(تبرع مع راسك، يا ولد الكلب، عندها مع كلشي هههههه)

نضحك ضحكنا المخمور الجميل كأطفال اكتشفوا بغتة والدهم يقبل والدتهم خفية وهي تخلّص ما علق بيدها من عجين. كاترين تعود بعد أن فسخت قميصها بدعوى الحرارة، حينها علمتُ أن الشوكة قريبة من طيز العريان، سأبحث عن أمجادي المظفّرة في هذا الجسد الكاتريني الدسم. رسل اللذّة تكون غامضة في البداية، تدعونا إلى البحث عنها بمنبهات ممهورة بكلام فاحش، أو صورة بورنوغرافية، أو ذكرى لطيفة عابرة، لماذا تكلّفنا هذه الرسل مشقّة البحث الدائم إذن؟ الحرب الحقيقية ليست مع الحدود والبترول والخبز والبطاطا، إنها حرب النزوة التي تموقع العالم حسب الفهم الجيد للتعبير عن حالاته الاندفاعية، حتى الدراسات الأخيرة أكدت هذه الحرب الصامتة، وأوعزت السبب الأوّل لارتفاع نسب الطلاق إلى عدم التوافق الجنسي، وليس العامل الاقتصادي، كما يدّعي الكل. ويقولون الثورات المستقبلية سيسببها الكبْت، تلفحني رائحة غزق مضمخة بعطر يفتح أبواب الهفة، تستيقظ كل منبهاتي، اقتربتُ من كاترين، إني أعلم اللحظة التي تبرق فيها العيون طالبة وصال الشهوة، أغوص بأصبعي في منبع إحساسها، أنقب عن شيطانها الحقيقي، تتقافز آنهة، كدابّة تعرّضت للسع العنترات، تُصدر وحوحات قريبة إلى الصهيل، مسرعة إلى فتح باب سروالي مدركة الكنز المخفي، تدفع بأرجلها للتخلّص من البيكيني الأحمر الوردي. صوت الغزق الصيفي يُحدث صوتاً قريباً إلى الضراط عند اللقة الكبرى. كرمشت كاترين بأنفها، ولملمت شعرها المنفوش، مائلة بوجهها على رأس الفوتاي، تلهث كسلوقي، أدرك طريدته بعد معاناة حازّة، فتقول بنفس متدبدب:

ـــ هذا هو الوحي الحقيقي الذي يأتي من أعماقنا.

أميل برأسي على صدرها، يطوّقني غمام التعتعة، فأستسلم لنوم لذيذ،

أحش به يأتيني من جزر مرجانية، قالت: هات يدك.

١٣) لقاء

الأنترفون يطالعك بوجهه المخدوش، تعلوه صفرة كأسنان قذرة، تحتفظ بموجات الطعام منذ أيام، يبدو أنه لم يُستعمل منذ عهد عاد. طرقت الباب في البداية بطرق خفيف كمن يخاف أن ينزلق فلس صابون من بين يديه. لا أعلم لماذا أنا مشدود الدوافع إلى البحث عن محمد حشوني مريض مونيكا؟! هل بفعل الرغبة في معرفته عن كثب؟ أم أن لقاء المختار ولد دادة أذكى في روحي تلك النيران الخابية الملتبسة بحنين مؤجل؟ ولماذا أتطلّع إلى إقامة صداقة مع مريض نفسي؟ حتى أنا في نظر مونيكا لا أقلّ عن محمد حشوني. ذكري هو العضو الوحيد السليم في جسدي، هكذا تنتابني لحظة متفزخة من الأسئلة.

شمس الصباح تشلّ المخ، تُرسل نصالها الحاقدة، طرقتُ الباب هذه المرة بعنف بعد أن كوّمتُ يدي على شكل لكمة. الفزق يزداد سيحاناً، أرمي بأنفي تحت إبطي دون تفكير، تُداهمني رائحة زنخ أليفة، أعرفها ملياً، كلنا نهتم بهذه الروائح، ونستأنس باسترواحها خفية، نبحث عن عود مشروخ، نُدخله بين أسناننا، نتوهم حكاً بين براجم أرجلنا، نُدخل أصابعنا بين أفخاذنا. عن قصد أو غير قصد، المهم أننا نستأنس بهذه الروائح خفية.

كدتُ أنسحب حين برز ظلّ من وراء ستار رمادي شفاف، يرفع يده بإشارة حانقة، كانت المسافة قصيرة جداً في ترتيب نفسي على أسئلة محتملة. أزيز الباب يزيد من حدّة ارتباكي، يشير بيده من جديد، أتبعه إلى الداخل دون أن ينبس أحدنا بكلمة، كأننا رتّبنا للقائنا هذا من قبل، يقولون: القوى النفسية لها وقع إيجابي أو سلبي منذ الوهلة الأولى، أمرني بيده بالجلوس على طرف سرير متآكل، يظهر من جانبه خليط من الصوف الرمادي والأسود والأبيض الذي لم يعد أبيض، عليه كومة من الملابس ربما تؤدي دور الوسادة. جلس قبالتي على كرسي أعرج، حينها برز وجهه المملوء ملياً بلحية شوكية، اختلطت بشاربه، فحجبا شفتيه، يحاول أن يتكلّم، فتتسع عيناه الملفوفتان باحمرار متعب، يقدم لي علبة سجائر مارلبورو، سحبتُ سيجارة، مررتُ لساني على لفافتها حتى تسترخي طابتها المتقشفة، يشعل ولاعته قربي كإيذان لإشعال سيجارتي، تتضح

أظافره الرمادية المائلة إلى الصفرة الملهبة بالرمق الأخير من السجائر، جذبتُ نفساً طويلاً، تتحد خيوط السيجارتين معاً متجهة صوب النافذة في اتحاد مع أشعة الشمس، مشكّلة مسلكاً مشعاً بالغبار، يهمهم بصوت فاتر:

ـــ أعتذر عن هذه الفوضى التي لا تليق باستقبال ضيف مثلك.

أشرتُ بحركة من يدي تنم عن عدم الاكتراث. الغرفة خالية من رائحة الأنثى، من يدها، ومن فرجها، الملابس متناثرة في كل مكان، معظمها تبقّع من فرط الرطوبة بذلك الاخضرار الخزي المقيت. رائحة الأنثى الوحيدة؛ لوحة جان دارك، تُدفئ وحدة هذه الغرفة الخشنة بذلك البهاء المنبجس من يد نوته دي مونفل، كأنه كان يدرك أن جان دارك بقضتها الجميلة ووجهها الناعم، ستحقّق انتصارات مستقبلية في نفوس المعذّبين، كلّما شخصت أبصارهم صوب الجمال الممهور بالرقّة والتواق للخزنة. ينقرني برجله التي تلعب تحت المائدة. يعتذر بحركة من يده. المائدة بنية زيتية قريبة إلى الأرض، لم يسعفني النظر بكشف ما تحتها، تتوسط السرير المنهوش والكرسي الأعرج، عليها مزهرية من الخزف خاوية من الحياة، وكذلك أوراق يانصيب، بعضها مملوء، وبعضها ممزق، وبقايا أغلفة أقراص منجعصة. محقد حشوني يتعقد الضغط عليها كردة فعل على إخفاء مرضه: ـــ يحسن بنا أن نشرب قهوة الضحى في الخارج، لتذوب المسافات بيننا. هكذا أردفتُ.

ملأ شدقيه بابتسامة منهكة، زادت وجهه انجعاصاً كوجه ملاكم، اللحية الكثيفة، والشارب الطويل حجبا الشفتين من جديد، يحك حاجبه الأيمن، فبرزت جبهته المخطوطة بسيول الهم، قبل يده، وقال في همس:

ـــ يتحدث إليكم الخير.

كنتُ أعلم أنه يؤمن بالفأل، حك الحاجب الأيمن يؤشر على أن الناس يتحدثون عنك ساعتها بالخير. "يوكو" ضاحية خالية، الأجساد لفحها الصهد، فقطعت الجسر الأحمر، لتتمتع بشواطئ "أنجلت" و"بيارتز". تدخل باراً صغيراً، يطلقون عليه اسم السيدة ليلى أسوة ببرنامج مع الأسرة الإذاعي، الذي كانت تذيعه إذاعة الرباط بحثاً عن الحلول الاجتماعية، هذا البار تُحلّ فيه كل المشاكل بدون استثناء؛ من تزوير أوراق الإقامة إلى النصب والاحتيال وحتى الزواج الأبيض. البار يبدو هادئاً، باستثناء عجوز نشوانة، تمازح الشاب الوسيم في الكونتوار، بأسارير مرتخية من فرط

الشراب، وكثرة المساحيق الدسمة التي تغطي طبقاتها. الشاب يتطلّع إليها بابتسامة خجولة، يرقبها بمؤخرة عينه. كان حديثها لا يتجاوز نطاق الشهوة، تميل بوجهها جهته مردفة:

ـــ ليس ثمة وضعية أحسن من إدخال شينك في شيء من الذبر صوب القبل.

الكرسي العالي يتزحزح قليلاً، كأنها على وشك النهوض، تُخرج لسانها رافعة يدها بحركة بذيئة:

ـــ الكلبة هي من تُتقن هذه الوضعية، يتضح الشيء المعزول ككرزة تتوسّط حلوة لذيذة.

محفد حسّوني يسعل سعالاً خفيفاً كمنبه على إنهاء ملاحقة العجوز. لملمتُ رأسي، وقلتُ لأتدارك الكلام:

ـــ أعرف العديد من ناس الزاوية بحكم أن أهلي يتسوّقون كل اثنين، أعرف فاضيل وبوصرر وحك سف.

اتكأ على الطاولة برأسه غارقاً في ضحك صاخب. العجوز تلتفت إلينا بعينين ناعستين متعتعتين، غامزة لنا، كأنها تشجعنا على الاستمرار. ربما تذكر حدثاً طفولياً مع هؤلاء المجانين الثلاثة. يرفع رأسه وبقايا الضحك يجلجل صدره، لحظتها ذابت المسافات بيننا متجاوزين باب المعرفة إلى أبواب أخرى أكثر شساعة. المجانين يساهمون في تأجيج العواطف، ويملؤون الخانات الفارغة للإدراك الحسّي. إنها رسالتهم الحقيقية الخالدة، يشغلون فضاءات زمنية ومكانية، لا يبلغها أحد، تتعذد حكاياهم وبطولاتهم، إنهم الأسياد الحقيقيون. محفد حسّوني يطلب قهوة أخرى، بإشارة من رأسه. الشاب الوسيم يحاول أن يتظاهر بشخصية العاقل، لكن تهتك العجوز يقتل هذه الرغبة، فينغمس في الجو العام، ترفع ثدييها صوب وجهه في إغراء استفزازي وديع للغاية. خيم صمت أقرب إلى صمت المقابر. لم يكن كجلال الصمت أو بهجة الصمت، كان صمتاً يدعو إلى التخلّص من عموميات الحديث إلى خاصها، ربما كانت اللحظة المناسبة لاختراق الفكر والحواس معاً، موسومة بإشارات، تضمن ذلك الائتمان المكرّس بمبدأ ما يسمى بالصحبة.

رشف رشفة عميقة فدوية من فنجانه ضاماً بأسنانه على شفتيه ضماً بليغاً، فمال مسنداً وجهه على راحة يده.

١٤) محمد حسوني

"البابور اللي جابني يلعن والديه".

فرنسا قحبة بمعنى الكلمة، عندما تحقق رغبتها تركلك، وتفردك إفراد البعير المعبد. كان بوسعي أن أحتفظ بهذه الشروخ النفسية لنفسي فقط، منغمراً في الشراب، قصد الاحتماء، والبحث عن حلول تُسعف بلحظة هاربة، كتلك اللحظة، التي كانت تحققها معلومة فلسفية، حين كنا طلبة بقسم الفلسفة بجامعة الرباط. نلبس وجه كارل ماركس بتقاسيمه الحادة، صدورنا تتحرك كصدر ستالين، الرفيق يوسف كما كنا نعشق أن نسقيه، مسرفين في مدحه وفعيبين على تروتسكي الخائن لقيم الثورة. وعافين عن اللحى والشارب، معتمرين البريه صيفاً وشتاء، فنفتخر بالعثور على كسوة شنغهاي، أو نلبس القميص بدون ياقة على شاكلة الرفاق. كلمة الرفاق لا تقلّ قحباً هي الأخرى عن فرنسا. دعني أحدثك دون ترتيب، ثمة أشياء تجثم علي، إنها السياقات الحقيقية التي قادتني إلى الدخول من أبواب مختلفة، أنت تعلم أن الجامعة يومها كانت مسرحاً للثقافات والصراعات بين اليساريين واليساريين الجُدد خاصة بعد انغمار الأحزاب في التوجه المخزني، والالتفاف حول دار المخزن المحفّزة والباعثة أيضاً على تهديدات خفية في الجهة المقابلة، لا أحد سيفوت جنّة دار المخزن، في إطار التباينات والاختلافات، كانت الصراعات على أشدها على مستوى قيادة؛ أ. وط. م. لم أكن أدرك ما أرغب فيه، أعجب بحركة ٢٣ مارس تارة، وبحركة إلى الأمام تارة أخرى، كان الفكر مع ما يسطره الرفاق، ألم أقل لك إن كلمة الرفاق لا تقلّ قحباً عن فرنسا؟! حتى هؤلاء الذين كانوا يتذدون بالطبقية والرأسمالية لا يخوضون محاضرة أو ندوة أو إضراباً إلا وكروشهم مملوءة بخير الرأسمالية؛ اللحم الطري والويسكي باهظ الثمن، ومداعبة الفتيات المتحمسات للجنس المشاعي، لم أنس الطالبة(ف.م)، حين تفتح فخذيها لأكبر عدد من الطّلبة، حتى الخجلى منهم تُرغمهم على فعل ذلك، بدعوى التحرر من الغريزة للعمل أكثر. لم أنس مرور أحد الرفاق البارزين وناصيته مفغمة ببرفانات باريسية، تُسقط الزرزور من فوق السور، النعمة تُسمّ وجوههم الحمراء النافرة بالدم، عكسنا نحن الطّلبة الوافدين

من جوائح الفقر، ندخّن مشاعة، ونسد رمقنا بالخبز والشاي لفن استطاع إلى ذلك سبيلاً. هذا الرفيق (الزاز) يشيد بالكومونة الشعبية في الصين، ويبصم بالعشرة على أنها الحلّ الوحيد لنجاح الثورة الفلاحية في هذا البلد السعيد، منهياً كلامه:

لندع مائة زهرة تتفتّح.

ما يؤسفني حقاً أننا كنا نرغب في إثارة المشاعر، فنفطر في رمضان نكاية في المجتمع المتخلّف المربوط إلى وتد الدّين، إلى وتد الوعد والوعيد، حالماً بالجنّة والزحزحة عن النار، نفطر في رمضان رافعين شعار"قتل الله" بأناشيد عفالية، ومرتّلين البيان الشيوعي في خشوع تام، حتى نحن كنا ندعو إلى التطرّف بمفاهيمنا الخاصة، كانت جثتنا على الأرض تحتاج إلى عرق ينحدر على الجباه، لتستيقظ الرغبة والحياة فيها.

كانت ليلة ليلاء، وأنا أقف في مفترق الطّرق محدّداً مصيراً مبهماً. التطلّع إلى نتائج ربيع ٦٨ الذي افتتنت به، ما تزال أفكاره تنهشني كنسور جائعة، تحتفل بجثة في موت سماوي: سارتر، دريدا، ميشيل فوكو، رولان بارت، الخطيبي، و...و...و... الذاكرة نشاءة عند ذكر الأسماء. في الصباح الباكر، غزتني قشعريرة مبهمة، تحاملت على كل أنوار باريس، دعتني إلى الاستسلام لتيار الهجرة. فرح مشوب باتحاد رغبات قلقة، وأنا أضع القدم الأولى في باريس، حانتنا البودليرية، كنت توّاقاً إلى شرب أوّل بيرة في هذا العالم الفسيح، بالفعل باريس الوحش الحديث كما قال بلزاك، فاتنة، مغرية، صادمة، أقصد صدمة الحداثة التي يوحي بها عبد الله العروي. ثمة التباس، لم أستطع التخلّص منه رغم الخزية في الظاهر، لكن كنت أحس بالعبودية في الداخل لشرخ عظيم منطو على قلق موحش، أحس كمن بترت أحد أعضائه، فأسرف في الشراب، متحوّلاً إلى رجل أحمق خاصة الويسكي اللعين، هههههههه، مرة أخرجت ذكري، وتبولت على من في بار بباربيس خاص بالمهاجرين العرب، وأنا أصيح ملياً:

"إذا عزتت خربت".

هذا بالإضافة إلى التبول في سروالي، والنوم في الشارع كالكلب. وأشياء أخرى لا تليق ببني آدم. فاقترح علي صديقي التونسي عبد الغفور الزواج من أخته غلية رحمة بي، وشفقة علي. غلية إنسانة رائعة، تستقبلني بوجهها المشرق الأسمر، كلّما عدت من العمل، تنزع حذائي، وترغمني على أخذ دوشي اليومي، منحتني دفء الحياة، وجنّبتني مشقّة السفر. زوجة

خبرت معنى المؤالفة والتوافق حد إرغامي على أخذ كأسي في البيت، كنت أتوسلها كطفل من أجل أخذ كأس في البارات، تقبلني على خدي، وتدعو الله العفو لي، هي من علمتني الصوم في البداية بعدما نسيته لأعوام طويلة، وأنستني لحم الخنزير، كنت لا أبالي بالحلال والحرام، لم يفضل سوى الشراب، فتقول:

"ساعة من عند الغني تُغني".

كانت فرحتنا عظيمة لا تُضاهيها فرحة بمولودنا الأول، اخترنا له اسم عبد الحي تيمناً بوالدها سي عبد الحي، فارق الحياة منذ سبع سنوات، بسبب سرطان الرئة، أصبحت أباً حد التماهي، نسيت ذلك الشرخ القديم. لكن بين عشية وضحاها فقدت كل شيء، كنت السبب الرئيس في موتهما أو قتلهما في حادثة سير، خانني فيها المقود، فانزلقنا إلى أسفل النهر، لم أفق من الغيبوبة إلا بعد شهر (عمر شقي بقي) كما يقولون، استيقظت، ويا ليتني لم أستيقظ، استيقظت على الفاجعة الكبرى التي غيرت حياتي، علمت بموت غلية وعبد الحي، من يومها وأنا لم أسامح نفسي مستسلماً للشراب بالمزة، فقدت عملي بسب غيابي المتكرر، لم تعد للحياة قيمة بعد وفاة غلية وعبد الحي، البيت ظلمة لا تنتهي، ولعنة العقاب لم تجد لي اعتذاراً. حالتي ازدادت سوءاً، نصحني عبد الغفور بالسفر إلى وجهة أخرى بعيدة نسبياً للنسيان، فأرسلني إلى صديقه حسن بايون، يعمل بالميناء في بوكو، لم يُسعفني العمل الجديد على النسيان، وسرعان ما عاد ذلك الشرخ القديم الملتبس، حاولت الانتحار مرتين، لكن يبدو أنني لم أكن مدوناً في سجل الموت، حتى ذكري لم يعد يسعفني، ثقة خوف يداهمني، يمنعني من أن ألبي رغبتي، أحس حينها كأن الطير على رأسي، ما أصعب أن تحجب عن الإنسان عوائده، خاصة العوائد المرتبطة باللذة، تنتابني نوبة غرق كالمحموم. الغرق ينز مني بارداً، فأستمني، وذكري مرتخ كالمخاط. أبكي بكاء صامتاً، لا تخلصني منه سوى التعتعة المفرطة حد الموت. قررت الابتعاد عن الشراب بالمزة، بعدما توجهت نحو تلك النقلة النوعية الملفوفة بالطرح اللاهوتي المنفتح على أسئلة عميقة، فعدلت عن نظرية قتل الله السبعينية، وانسقت أبحث عن الله في كل مكان، منبهراً بتلك الحمولة الدالة، والجامعة للصفات كلها ابتداء من اسم الله الحي. لكن هذا الوقوف المفاجئ عن الشراب والبحث عن صريح الإيمان أصابني بهستيريا ووسواس قهري، كما أكدت الدكتورة مونيكا. الآن أؤكد لك أنها مسألة وقت لإعادة بناء شخصيتي القريبة إلى الله حتماً، فلو لم يكن الله موجوداً، لكان

معدوماً، لكن وجود هذه الكائنات دليل على وجوده. وجوده هو الخلاص..
هو الخلاص.. هو الخلاص.

هاتفي يرن صباح الأحد بإلحاح مقصود. طاطا مارتين تدعوني إلى قضاء صبيحة الأحد رفقة كرينكا بأنجليت على الساحل، نشرب قهوتنا، ونُنعم النظر في الأجساد الشابة الملتهبة من فرط الحرارة. تصلني كركرتها الصاخبة، كأنها تذكّرني بأنوثتها، ما تزال تطاوعها، لم تشخ بما فيه الكفاية، ما تزال ثقة نحنحة خاصة في الصيف المدبج (بالزملة الشمسية)، كما يقول أستاذ مغربي لتلامذته الذين يبكّرون بطقوس الصيف في شهر أبريل.

وجدنا طاطا مارتين بانتظارنا قرب تمثال الكاردينال لافي جيري بسيارة فارهة. صعد كرينكا إلى الخلف، تقبلني قبلة الترحاب، أحسست بها قبلة غير بريئة سادلة شفتيها بالقرب من شفتي، فأردفت بعد أن وضعت يدها على فخذي:

ـــ أين كنت طوال هذه الأيام، يا ناكر العشرة؟

قرصتُ بعيني اليسرى، وقلتُ:

ـــ كنتُ في باريس، أبحث عن النور بين النهود.

انتشت بهذه الكلمات، وجلجلت بضحكة، أثارت كرينكا، فأصدر نباحاً خفيفاً، كأنه يرغب في أن يعرف سبب هذه الضحكة. الموسيقى تنبعث من كل مكان من السيارة. لم أحدد مصدر انهمارها، تخرج صافية عذبة، كل آلة تصدح من تلقاء نفسها معبرة عن ذلك التكامل الديناميّ الذي ترغب فيه الروح. طاطا مارتين تحرك شفتيها كأنها تتمطق مذاقاً، لم يفضل سوى نكهته، فقالت هامسة بحركة شبابية بعد أن ضغطت على المكبح بقوة:

ـــ أنا خرّة.. أنا خرّة.

لم أكن أتصور طاطا بهذا الشكل الحيوي الفجائي؛ لحظة مسعفة لانجذاب لا يمكن أن تعكسه سوى تلك النقطة الفطرية، التي تحركها قوى نفسية مرتبة بما فيه الكفاية. كرينكا يدخل خطمه بين الكرسيين محملقاً في طاطا. لم أعلم لمن وجهت هذا الخطاب: أنا خرة. ثقة تفيير واضح بين

المزة الأولى التي تحدثت فيها إلى طاطا وهذه المزة: قصة الشعر الحادة حد الأذن المصبوغة بالأكاجو حد المنبت، حيث اختفى بياض الوقار وبياض القرب من القبر. الأذنان منفقتان ببوكلات خضراء عاجية. الوجه مزركش بمكياج دسم، يخفي منعرجات الزمان. العنق منفق بسلسلة ذهبية مختومة بأيقونة، لم أستطع تحديد هوية صاحبتها، يبدو أنها قديسة من القديسات الجهوية. القميص الخفيف البني حد بداية الكتف. تقبع تحت القميص حمالة أثداء، يبدو أنها تخفي البولستير لتقييم الترهل إلى مراكز قائمة، فتستقيم الأثداء برأسها المدبب كجندي روسي متحفز، في الأسفل تنورة كاكية خفيفة، يتضح تحتها الكيلوت الأسود الشبابي المثير للشهوة، وصندل جلدي خفيف مشدود بخيوط، تُحزم على الكعب. أعلم أن طاطا قضت وقتاً طويلاً قرب المرآة في ترتيب نفسها، تتعزى تارة، وتلبس تارة، مبرزة تلك الملكات النفسية بين الرضا والحسرة. تذكرتُ أحد معارفي كيف كان يترصد مثل هذا النوع من النساء. قط أنفه مدرب على شم فأر شهوتهن، يعرف كل مقاهي باريس المعروفة بظاهرة (الجيكولو)؛ شبان يكترون أزيابهم الناضجة مقابل المال. ليست المرأة وحدها من تمتهن القحب حتى الرجل، بعض الرجال يمتهنون القحب الأمامي، وبعض الآخر يمتهن القحب الخلفي. الإنسان له القدرة على تبديد كل طاقته في دعم حالة الاستنفار التي يمليها الجسد في كل العصور والأعمار والوضعيات. طاطا مارتين تصيح بكلمة أنا خزة مرتين، التكرار يفيد التقرير، قد صاحت ليس عبثاً، فهي قادرة على التخلّص من كل شيء إلا تبعات الجسد باعتباره النضال الوحيد حد الموت. أضع يدي على كتفها برفّة، تلتفت بجانب عينها الأيمن، تصدر منها تنهيدة أقرب إلى الوحوحة، فتردف:

ـــ الخز اللاهب يحتاج إلى شراب بارد لإطفاء لفحاته.

كرينكا يُصدر أنيناً لطيفاً، يُداري رغبته في التبزز، أفتح له الباب، يفتح كوة مؤخرته، يبذل جهداً في إخراج فضلاته، مع العلم أنني لم أقم بحركة تقاطع السبابتين في جذب قوي لتعسير عملية إفراغ الكلاب، كما كنا نخال في طفولتنا. مزت سحابة بيضاء، حجبت الشمس، سرعان ما تلاشت، وعادت الشمس الحارقة تكوي الأجساد.

دلفنا إلى بار صغير كاشف، يقدم خدماته في الصيف فقط؛ كراسي عادية وطاولات لا تحتاج إلى ذلك الإسراف المقيم دائماً في محل مستقر. البحر هائج، الموج يتكسر على الممز الأسمنتي، فيفلق البحر إلى وجهتين، كانت الحبيبات المالحة تصل مباشرة إلى الساحل. نطلب بيرتين لصد نبال

الصهد ، ونُنعم النظر في الامتداد الأزرق. البيرة نشوة المعاشرة الصيفية، أرفع كأسي في وجه طاطا إيذاناً لها بنقرة الحب أو الصداقة أو السعادة. كل الحواس يجب أن تكون حاضرة في هذا الوقت نقول معاً: "تشن"، إنها دعوة معنوية أكثر منها مادية، تفتح طاطا عينيها ملياً، وتدلق بشفتها العلوية في رغوة البيرة، فتختلط بأحمر الشفاه القاني. كرينكا يبحث عن الظل، ينتبذ ظلّ الكرسي، يلهث في انخفاض وصعود، جلده لا يتوفّر على مسام تساعده على إفراز عرقه. نزداد انشراحاً عند توالي الكؤوس مفردين خريطة العين على الفتنة التي تدبّ على الساحل؛ شباب تلمع عيونهم وأجسادهم بصرير الشهوة. كهول يحاولون أن يأخذوا حقهم قبل أن يدلفوا الضفة الأخرى المحزنة والمثيرة للشفقة. عجائز يرغبن في شحن بطريات الجسد لدرء ما تبقّى من روماتيزم الشتاء.. الكل يتحدّث عن فوائد الفيتامين(د) والكريمات والزيوت لأخذ الشمس في احتراس، قصد تجنّب الميلانوما. دبيب الشراب اللعين يكتسحني محزكاً مراكز السعادة. طاطا مارتين انفتحت أساريرها، يزداد جمالها انقشاعاً، تلتفت مشيرة إلى الخلف بأصبعها صوب هضبة تُدعى غرفة الحب. ذاكرتي تعجّ بهذه الأساطير التي تمجّد الحب، وسيتحوّل هذا التمجيد إلى موقف تراجيدي مبهر، لكن ما يعجبني في طاطا هي طريقة الحكي كالجدات في الشرق، تستعين بكل حواسها لإذكاء روح اللهفة، شخصياً لم أتذوّق الحب، لأبجّل الخلاص أو الموقف الجاذب، لم أستطع فصل الحب عن تصوراتي وميولاتي الجنسية، أبحث دائماً عن ذلك الدبيب الكهربائي حين أتمكّن من غريمي باسطاً أنفاسي، وبعدها تتضح الصورة النفسية المشحونة المتحوّلة إلى إيعازات، واستيهامات فقط. طاطا تبدو مغرية للغاية في هذا الوقت، تناسيث داء الملوك وحالة الحك الدامية، يبدو أنها أخذت حقّها من الشمس، واكتست بلون عسلي. تؤكّد مونيكا أن النقص في حنان الأم يولّد ميولات اتجاه النساء أكبر منا بكثير، فاحتضانهن لنا يلبي رغبة دفينة بتعويض هذا النقص، الأمر الذي يدفعنا إلى البحث دائماً عن هذه الشريحة من النساء. منذ أن التقيت كاترينا عند المختار في باريس، أحس أنني خرجت نسبياً من تلك الصدمات التي تُعرقل نشاطي مع مونيكا، هي من ترشد عملياتي الجنسية، فأجاربها سعياً إلى خلق ذلك التوافق الكاذب، أحس بأنها طبيبتي حتى في الفراش، متعاملاً بذهنية العبد المكرّس للاحتمالات العظيمة. مؤخراً تسرّب إلي فتور، إلى حدّ أن الانتصاب أصبح عملية مقرفة، يحتاج إلى مداعبة أطول بتلك العضعضات الأليفة بشكلها العمودي والأفقي لتنبعث تلك "أوم" المقدّسة من الأعماق، فهي غالبا مفتعلة كإشارة

على العظمة المنهزمة، التي تبحث عنها مونيكا. صادفتْ هذه اللحظة هواها في نفسي. أسرح بذهني في تأمل طاطا في أوضاع مختلفة، لم أصحُ من هذا التصور إلا عندما داهمني كرينكا بنباحه الجائع، يرغب في العودة، هذه عادته، يملك ساعة بيولوجية رهيبة، تقبله طاطا، وتعده بتحضير وجبة مغرية. تفاجئني دعوة طاطا للغداء في بيتها، بالرغم من أننا لم نحدد موعداً مسبقاً. المغامرات والدعوات العفوية لها طعمها الخاص، لن تكلّفك التفكير الطويل، تبسط بوجهك ووجهتك دون تكلّف. موسيقى السيارة تزيد من حسن تلك الرئة الشمسية الداعية إلى الطمأنينة العابرة صوب الروح في تهويمات ناعمة. كنتُ أنقر على حافة اللوحة الأمامية للقيادة نقراً يملأ الفراغ الحاصل بين الفجوات الموسيقية. المغنية تدعو أباً كاثوليكياً إلى إنهاء عطشها من مائه الدافق، ترغب في رحمته التي يتأبطها بين فخذيه، حينها تعالى قرع أجراس الكنائس المبثوثة بنغمة صارمة، تدفع الأب إلى تقديم مبرراته بصوت قريب إلى التوسل، وبرغبته في ذلك. فثمة قيود تمنعه، تُصر المغنية بصوت فيه وحوحات وإغراءات لذيذة، يرفل الأب في حيرته البالغة بين جذب الجنة وجحيم النار، وأخيرا انجذب لنداء الرحمة، فتعالى رنين الأجراس من جديد في صوت مجلجل، كأن العالم عرف من يومها طريق الخطيئة الأبدية، أصبح الأب هو من يطلب الرحمة بدل العذاب. لا يمكن أن نحيط بطبيعة سكن طاطا مارتين، قصر شامخ منذ العصور القروسطية، تغلب عليه تلك التصاميم الموشورة والمدببة المائلة قممها إلى السواد، نلج الباب الرئيس، بعد أن يفتح بكود؛ تجنباً لاحتمالات السطو، أو القتل المزروع في الاستيطانات البرجوازية. الآخر الفقير هو ذئب لأخيه، يسرقه ويقتله ويحسده على النعيم الذي كلّفه الليالي الطوال من العمل. الفقراء لا يسعون، لا يكذون، يهدمون أكثر ما يُصلحون، هكذا عبرت معي هذه الأفكار الطريق الطويل بين أشجار الميموزا والكستناء، تفصلها أزهار على مختلف الأشكال والألوان، تقول طاطا:

ــ إن الموطن الأصلي لهذه الزهور من كاشمير.

تملأ وجهها شبح ابتسامة:

ــ هذه الزهور آخر ما تبقى من جنات الشرق. صراحة لم أجد كاشمير كما حكى عنها جانكيزخان، لم تعد كاشمير جنة الله في أرضه، بل جحيم الله في أرضه.

كرينكا يبدو منجذباً لجلال الطبيعة، يكتفي بتحريك خطمه منبهراً متقلباً على يمين زجاج السيارة وعلى يسارها. الطبيعة الكلبية جزء من الطبيعة. كنتُ قد قرأتُ في مجلّة علمية أن الكلاب لا ترى إلا بالأبيض أو الأسود. لكن أؤكد أن كرينكا يرى جميع الألوان الزاهية في انشداه وإدراك لا تخطئه العين. نجد الخادمة الإسبانية ماتيلدا في استقبالنا ببشاشة وبرستيج الخادمات المنقوحات بعادات ضاربة في العمق البرجوازي، تنحني لنا كممثلة غداة نهايتها من عرض مسرحي. لم يرغب كرينكا في الدخول مصرّاً على اكتشاف الجهات الأربع. أخضخض أذنيه موصياً بعدم العبث، يبصبص بذيله مؤكداً ذلك بأنين لطيف أقرب منه إلى الهمهمات كطفل يرغب في أن يهرب سريعاً من توجيهات أمه الصارمة.

لكل بيت رائحته. البيوت معلومة من روائحها. بيت مونيكا يعجّ برائحة الدواء. بيتي تغزوه روائح المبخرات الشرقية النفّاذة، روائح الصندل والجاوي، الحرمل، الفاسوخ، والخزامى. بيت طاطا مارثين تتناثر روائحه بين روائح الطعام وعبق العطور المختلفة المبشرة بحياة لامتناهية من النعيم. هذا القصر هو ما ينطبق عليه جنة الله في أرضه. اللوحات القابعة على الممرّ الطويل تضاهي ميزانية بعض الدول الإفريقية؛ لوحة زيتية لنابليون الثالث يسرح بحبل نظره صوب البحر. لوحة للواجهة الخارجية للفاتيكان كتعميد للتوجيهات الدينية، يبدو أن الفنان كان ملماً بأن الإيمان هو من يشذّب الإنسان، لكي لا تتعذّب روحه، وهذا يتأتى بالاختيار الصائب، فركّز على الدخان الأبيض الصاعد من مدخنة التبريك، كإشارة إلى الاختيارات الصائبة، وترسيخ قناعات مبثوثة، مكانها القلب، ومركزها الفاتيكان. لوحات أجدادها تباعاً مرفوقة بورقة بنية، تحفظ تواريخ الميلاد لهذه الشجرة البرجوازية. صورة طاطا في شبابها مع الباسوناريا بيلباو، تبدو الباسوناريا متعبة بأحلام الحزب الشيوعي المنهوكة. ينتهي الممرّ إلى صالون الضيوف على بابه من الجهتين أسدين من المرمر. الأفرشة الحريرية والسجاجيد على اختلاف أنواعها بذوق شرقي، تهفو النفس للمكوث فيه حتى الموت. تعرج طاطا على غرفة نومها، سرير نوم كهرباني دائري لا يمكن أن يستقر على وضع واحد، ترتمي طاطا على قفاها في حركة شبابية، وتجذبني من يدي، وتقبلني قبلة محمومة غارسة لسانها في أعماق فمي، تتراقص بعينيها، وتُقفلهما، لتدرك المذاق العذب من داخل حواسها، حينها انبعث صوت عذب على شاكلة مضيفات الطيران، لا أعلم من أين ينقشع:

"الغذاء جاهز، سيدتي".

المائدة الكبيرة منصوبة قرب المسبح كمركب، منفقة بكل أشكال الأطعمة والشراب. كرينكا يلتهم دجاجته في انشراح، مقرقعاً عظامها على الوجه الأكمل. طاطا تخلّصت من كل ملابسها، باستثناء كسوة كاشفة واصفة، تطلب مني أن أتخلّص من تي شورت الأزرق، وأتمتع بسخر الشمس. عيناها جائعتان، تشيان برغبة حازة. ترتمي طاطا في المسبح كسمكة بوري، لم أكن أتصور أنها تجيد السباحة إلى الحد الذي لا يصدق، أرتمي بطريقتي المعهودة مقلوباً على رأسي، كما كنتُ أفعل في طفولتي، أقرص طاطا قرب منبع إحساسها، كأنني أشرتُ لها ببداية العراك. كرينكا يلف بالمسبح في حالة هيجان، يرغب في السباحة إلى جنبنا. الشراب والقبل على حافة المسبح نشوة مبهرة. لم يقاوم كرينكا رغبته، فارتمى محزكاً رجليه بحركات رشيقة منسابة مع الماء. طاطا تجذبني من يدي، وندلف إلى غرفة العمليات، أنهش طاطا، وتنهشني في حالة شاذّة، تجمع بين السادية والمازوشية، ولا السادية ولا المازوشية، الأوضاع تُفقدك رشدك، وتنفد ذخيرتك من كل التجارب أمام هذه الإثارة، تحس أنك في أحضان فتاة نافرة، كمهرة لم تطلها يد سائس بعد، لا تغمطك حقَّك في إدراك الاستغوار المشوب بلبس ومظان، لم تحظ بها من قبل.

شمس الغروب تنحني في وداعة كانحناءة الخادمة الإسبانية ماتيلدا. اشتد نباح كرينكا، يرغب في أن يعجّل إلى بيته السكسوني، أضع طاس القهوة، ألبس ملابسي على عجل، تطلب مني طاطا أن آخذ سيارتها، أتنصل من ذلك، تسلّمني ظرفاً، أدعكه في جيبي الخلفي. أمشي وكرينكا جنباً إلى جنب بدون ربقة في نشاط، كأننا نرغب في أن نقفز في الهواء، ننظر إلى بعضنا في ذهول مبهم، لا يحقّقه سوى ذلك الجانب الخفي من الدخول إلى جلة ما.

١٦) طفل يتفلسف

فتحت صندوق بريدي، أجد رسالة والدتي، أدعكها في جيبي. شيطاني يتقزز من فتحها، يقترح قراءتها بعد أن يشرب شرب قوم ضمنوا من عهد عاد. الظرف الذي منحتني طاطا مارتين يسعدني لمدة عام، كان مبلغاً محترماً جداً. تحس بالحياة التي تليق بوجود إنسان يدب، كما يدب هذا الشراب إلى موطن الأسرار. انفجارات جديدة، واستجلاءات منسابة، تبسط يدها، لتأخذني في رحلات، تعيد ترتيب رؤيتي المنسجمة مع طروحاتي الجديدة، أشعر بتردد في التحرز كطائر على باب القفص. أسعى إلى التمرد على توجيهات طبيبتي وعاشقتي مونيكا. العبودية إحساس متعب خاصة عند فضح الآخر للجانب المخجل لتصوراتك الذهنية. أجزب أن أغني بلحن يعبرني كشهاب تائه على ضفاف نهر لادور في الضفة الثانية قبالة كنيسة سانت أندريه:

واه ديك الشمش الطالعة

إلى شفتي مافا حنا

واكول ليها راه وليدك دموعه ضارعة

واه ديك الكافلة لغادية

إلى شتي ماما حنا

كول ليها راه وليدك مقبلاتو زاوية

رعاو خيل خوتي بسبعة

رعاو نوار بلعمان

رعاو البهمى وعود الريحان.

دموع تنهمر مبللة خدي بأرق الذكرى، تعود سوسة الضياع القديمة المنخورة بوشم، لن ينمحي. الوشم وحده من يبرز الخفايا، وشوم والدتي على ذقنها يزيدها سطوة، كنت أداري خوفي من هذا الوشم خاصة عندما

أسمع عن الجنية الرابضة في الكهف الخلفي لقبة سيدي مبارك المحجوب بسعف النخلة المنهوشة القريبة إلى الأرض دائماً. يقسم أحمد بن بوشعيب على أنه شاهدها عدة مرات مبرزاً علامة وشمها الكبير على ذقنها، بعد أن يخط برأس عصاه في التراب بخط غليظ، مبرزاً شعرها الطويل كشعر الفرس، وهو يكوم على عروش رتمة من فوق، ويقول في اللحظة التي فتح يده:

ـــ علي بالله، إن أرجلها كأظلاف ناقة ولد سي احميدة.

يفرس سكين بوضلعة في التراب، حتى تذوب في الهواء، إن كانت على مقربة منا. المسافات تزيد بُعداً بيني وبين والدتي، يلتبس علي الأمر، ولم أعد أفرق بين الجنية ووالدتي، كنت أتحاشى أن أصطدم بها ليلاً، الخروج ليلاً للتبول كان جحيماً لا يطاق. أتخيلها تتبعني، كنت أبحث عن أم بدون وشم في مخيلتي، أتطلع إلى جارتنا "مي هنية" بوجهها الملائكي الخالي من الوشم، المملوء بتلك الشامات المحببة إلى النفس، خاصة تلك الرابضة على حاشية الأنف، أسرح بذهني، تنداح مني همهمة قريبة إلى الهمس: "هذه هي أمي الحقيقية". لحظتها ينبعث صراخ والدتي بكلامها القبيح، تتوعدني بجهنم الحمراء على ترك البهائم تجتاح فدان "مي هنية" المخضر دائماً. تخرج "مي هنية" من بيتها، بابتسامتها العذبة معاتبة والدتي أو الجنية:

"لا حاجة لك، بولدي، دعيه يرتع، ويأخذ حظه من اللعب".

تصدق تنبؤاتي، ويسري نور إلى قلبي، أغمض عيني حتى أسمع كل هواجسي تناديني:

"قم، يا حبيب الله. قم، يا ولد "مي هنية"، ابتعد عن الجنية، واقترب من أمك الحقيقية "مي هنية"".

أفتح عيني صوب الشمس العمودية، فتترادف الصور النورانية لأمي هنية بشفتها البيضاء المخلّة بنطاق أخضر على الحواف كأولئك العذارى اللواتي وهبن أنفسهن لله، مطهرات الجسد والروح. لم يكن فكري مفضلاً على قذي، كما تستدعي الوظائف البيولوجية والطبائع الاجتماعية المقرونة بضغوطات الكبار، من أجل احترامهم وقبول سخرتهم التي لا تنتهي. كان عقلي مدية، يحاول أن يشرخ الأحداث، ويجد لها تفسيراً خاصة تلك المواضعات الجاهزة، لم أكن قادراً على كشفها، أحدث جحشي الأزرق

الوحيد الذي يفهمني، ويدرك حركتي وسفري اليومي في شعاب نفسي، فيعلم ساعة السفر حالما يحس بارتخاء جسمي عليه. يستجيب بتثاقله في الخطو، أو يقف حسب هواه متوهماً أكل عشب. لا يوجد أصلاً، عندما يرى أحدهم يبرطم بنفس من خياشمه، كمؤشر على انقضاء السفر بظهور هذا الوغد. أذناه تقول ذلك، فيشوبه قلق وشيك، محاولاً عدم القرب منه. أو أحدث قملة ناغلة من فرط الحز، التقطتها بحاسة الصيد الداعمة بين الظفر واللحم. أفردها على دفتري الأبيض، أضعها على السطر، تسرح تائهة في مجال جديد. لا يطاوع أحلامها. فتتضح الإخفاقات الصغيرة في موازنها الملفوف بعدم التمكن من تحديد وجهتها.يلفني حزن على مصيرنا معاً. فأحكم عليها بالموت قعصاً بظفر إبهامي تاركة ظلّ دمي فقط. أو أشفق عليها بالطرد من مملكة رأسي ملقياً بها في التراب، أعلم أنها لن تعيش، ولن تتمكن من اكتساح مملكة رأس جديدة، لكن أترك جانب الحكم مفتوحاً على المنافي والسيحان. كما تخلّت السماء عن آدم في مسرح الكون الواسع لتمثيل مسرحية الوجود. أتطلّع إلى السماء لرصد هذه القوة الهائلة، فأجد جوابي الخاص، محذداً نزول آدم في تلك الفجوة المشمسة المتسللة بين الغيوم، سرعان ما تضمحلّ وتعود الغيوم إلى سوادها، فيستعيد مسرح الكون مسرحيته الأزلية المسفاة الحياة، والمسترسلة بصخب العمارة والحرث والكسب. البهائم تشاكس بعضها في تحم رهيب، جحشي الأزرق وجحشة "مي هنية" يهادنان بأسنانهما الكبيرة وبرهما في نقر متبادل عجيب، للتخلص من تلك الطفليات اللعينة. يناشدان احتمالات الراحة المؤقتة. الإنسان والحمير لا راحة لهم في أداء أدوار هذه المسرحية، وتستمز المسرحية، وتتلفني حذة الطبائع، أصول بعقلي وبصري صوب دور الدجاج في هذه المسرحية المسفاة الحياة. أجد الدجاجات رمز الإغراء الاستفزازي في وقوفات قاحبة. أرسم صورة في ذهني للفروج المسطحة والمسبلة، يجد الفرج المسطح في ذهني مكاناً ملتبساً. كنت أرى والدتي أو الجنية بعد خروجها من الحمام تسرق المسافات من موضع الاغتسال إلى الغرفة الكبيرة غير مبالية بغزو عيني لذلك الشيء الغريب المنطوي على أسرار، مضاعفاً مساحة الأسئلة:

ـــ كيف يخرج هذا العالم من تلك الكوة الشبيهة بقنفذ متكوّم على نفسه، وتستمز هذه المسرحية المسفاة الحياة؟!

معين التساؤلات الطفولية لا ينفد. تزداد معه شساعة الكون المسرحي وشخوص المسرحية بعد النجاح في الشهادة الابتدائية، ومجاورة المدينة

بعالمها الأكثر غرابة، تدثرتها انسلاخات عن شخصية الطفل البدوي إلى الطفل التصف بينهما.

الغروب يترسم بين الرؤوس المدببة لكنيسة سانت أندريه، تفشحت عقيرة النوارس بنشيد صادح، يكشف عن وصد باب النهار الكاشف، وفتح باب المساء المخملي المخمور المتناغم مع الذات في نوستالجياتها الرمادية، فأرجأت فتح رسالة والدتي حتى إشعار آخر، مشاركاً النوارس ببختي المتقعة:

واه ديك الشمش الطالعة

إلى شفتي مافا حنا

واكول ليها راه وليدك دموعه ضارعة

واه ديك الكافلة لغادية

إلى شتي مافا حنا

كول ليها راه وليدك مقبلاتو زاوية

رعاو خيل خوتي بسبعة

رعاو نوار بلعمان رعاو البهمى وعودالريحان.

اندسست إلى جانب مونيكا. ذاكرتي مشوشة، بسبب نقص هرمون السيروتونين؛ (هرمون السعادة)، أقطع عادة حبة السيروبليكس الحيوية الصباحية عنوة دون إخبار مونيكا، اندسست إلى جانبها منهوشاً برغبة ذاك الشيء المبهم، الذي يسمى الحب، أو المؤالفة، أو العبودية الناعمة، أو برغبة الخبث المتجذرة في الإنسان بدواعي الانتقام. الانتقام وجبة دسمة من الأحسن أن يُؤكل بارداً كما يدعي الأخوة الفرنسيس. ثورات مؤججة تجري في مجرى الدم. ألوح ببصري في السقف المظلم، تتراءى كل الأحلام المجهضة. أحكام القيمة هي التي أدت إلى كل ثورات العالم؛ إزالة طبقة، لتحل مكانها طبقة أخرى، هل أفكر في التخلص من مونيكا، واخذ مكانها؟ لم تتضح الفكرة ملياً، أفكر في قتلها خنقاً، ألوح بيدي مهدداً الفراغ، ليس ثمة أخبث من حقد العاجزين. مونيكا تدفع بمؤخرتها كعادتها في وضعيتها المحببة، تُدخل يديها بين فخذيها على شاكلة وضع الجنين في كرش أمه، فيتبدى الجنين كامل الأوصاف وسط تلك الكرة الشفافة المخاطية الزجة بقلب صغير في مضغة طرية، يدق شوقاً للخروج واللعب بحس مرهف؛ يبكي، يفرح، يرنو... حينها أطلقت يدي المطبقة على الفراغ ممرراً بها على شعر مونيكا، فيبدو الطفل المولود جميلاً بنفنغاته التي قتلت معها حقد أسلافنا البدائي المتوارث عن طبيعة الصراعات اللامتناهية والظامئة إلى الاحتفال بالقتل، أما الدماء المضرجة والجروح الغائرة، فهي عادية، كما يأكل أحدهم خبزه المتقشف دافعاً به في بلعومه المتصلّب بحماس المتفوق في كل شيء، وعلى كل شيء. أعتقد أن ما ينقصنا أنا ومونيكا هي تلك الحركة العفوية الخالية من السيد والعبد، في لحظة التسامي وفق المشروع الفرامشي المحدد للتجاوزات المنفلتة من نير مغناطيس القيم، والمواضعات المشكلة لِلُبِّ علاقات غير متكافئة؛ فيها الآمر والمأمور والقائل والسامع، حتى في ذروة الاختبارات سأظلّ عاجزاً عن تلمس طريق جديد. مونيكا هي الكوة الرئيسة التي أطلّ منها على حياتي والعالم، كمثل عصفور رغب صاحبه في إخلاء سبيله من القفص مداوياً لحظة الشك بالاحتمال الكبير للعود الأبدي، تصدق تنبؤاته متباهياً أمام الكل بصنع هذا الطائر، غافلاً تلك الألفة اللاشعورية مع الأمكنة. الفيل يهنك

ذاكرة مدربة على الأمكنة، فلا شغل له سوى تبئير المكان، والحرص على العودة إليه. الجمل بذاكرته التي تفوق ذاكرة البشر والموشومة بثأر رهيب من الإهانات، يختار فرصة الانتقام بدقّة متناهية التشكّل في زمنه النفسي وفق الأمكنة في حد ذاتها، يتضخم الإحساس بأن نهايتي الأبدية هي مونيكا رغم الجولان بعض المزات خارج ملعب منبع إحساسها، لكنه لا يخرج عن شحذ سكّين اللذة والموران المعجّل بلحظة غير مسؤولين عنها، تقودنا إليها احتكاكات مجانية، أو ابتسامات عفوية، أو طلب ولاعة لإشعال سيجارة، فقد كنتُ دائماً خارج ترتيب هذه العملية. سمرتي اللعينة هي من تجزني وسط هذا الجو المشحون بثقل البياض الناعم والشعر الأشقر والعيون الزرقاء الهائمة، محاولة طرد تلك الرتابة الموحدة للون والشكل. جسدان مختلفان ينقشعان عند نقطة التقاء محددة في سياقاتها العامة المرتبطة بنشوة المناورات، وفك رهانات الجسد المسرف في بياضه وشاماته البلورية، والتواق إلى تجريب النغم الكوني مع تلك الأزباب الناضجة المحرقة المختتنة. الأزباب السمراء اللافحة من فرط شموس السواحل الإفريقية. قرأتُ مؤخراً لروائي مغربي خائب، عنون روايته بطاحونة الخيبة: أن بعض الأفارقة يعبدون ويقدسون الثعبان، لقدرته الخارقة على سبر الاستغوارات والالتواءات المطمورة في جوف الأرض، كم راقني هذا التشبيه، ولعنتُ هذا الخائب إلى يوم الدين لاستغلاله هذا التأويل الصريح، كاتماً ضحكة بشعة، لأنه يتماشى مع طرحي في رؤية الحرث، كلّما التقيتُ جسداً برانياً، أكشف عن حناء يدي، متموجاً مع تضاريسه كبائس متمسك بوتده المغروز في بلعوم الجبل للظفر بالغرز الأخير المتقطر من أنبوب عمق اللحظة الخالدة، فتزيد قداسة هذا الثعبان في إفراز هذا: "السّم الذي يُشبه العسل، تلك السلسلة التي تربط الأنام بالأرض: المرأة". كما يقول بوذا.

مونيكا تُصدر تنهيدة متناغمة مع لحظة تمرير يدي، متظاهرة بالخروج من حالة الطفل الملاك إلى الانغمار المتيقّظ، منبهة بإشعال نيران حرب جديدة، سأكون فيها الخاسر حتماً، منساقاً لاحتمالات الغطْرسة، الغطْرسة المتهزمة، المخاتلة والاستعلاء، ستستدرجني كما يستدرج قناص ماهر طريدة ساذجة. أصدرت لحناً هامساً لقتل شيطاني المنطوي على تفكيري ملوحاً بلعنة عقابه، وتشفيه المترذل. بادرت مونيكا إلى إشعال تلك الأنوار المتلألئة على جنبات الغرفة في تقطعات فسفورية، تتخلّلها موسيقى صينية، تُحدث قرعاً وطنيناً، يُزحزح خليطاً من الترسبات عن عوالم، ظلّت عالقة، تبغي التمسك بحبل الجوهر، العمق، والماهية بالمعنى الحسّي، لكنه

يظلّ عابراً كقفقاعة، تجمل الفضاء لحظتها قبل الاندثار، فيزداد الإسراف في شرب الماء الهماج كشرب الهيم. لم أنس رذة فعل جيل بيير صديقي العجوز لحظة مزاحه، حين أخبرته عن التدجين الجديد للإنسان داخل منظومة القيادة الجنسية بين شريكين غير متكافئين. كنت أخالني مزهواً بعبارة العبودية الناعمة، سرعان ما انتفض في وجهي كأن جناً ركبه:

ـــ هذا ما ينقصنا، أيها البغل، بعدما كلّفتنا الثورات الأخضر واليابس، مسرفين في تلميع جبهتها بأفكار فولتير وديدرو وإمكانية تعاقدات روسو الاجتماعية والثورات اللاحقة وصولاً إلى ثورة ربيع باريس، إلى الشيء المقزّز الذي اسمه العولمة ممتطياً نضالنا، حتى تظهر أنت باسم جديد لثورة بغلية، أيها البغل، كأنك ترغب في إعادة ترتيب التاريخ وفق رؤية نفسية وجسدية، قد حذقتها علوم البيولوجيا منذ أمد بعيد.

كنت أرغب في زعزعة يقينه المنصب على علوم البيولوجيا بأخلاطها وأمشاجها ووجهها العلمي المكتفي بتحديد دور الخلية فقط. أضحك ملياً في وجهه رادفاً:

ـ يجب أن تعلم أن عدم الكشف عن أعراض هذه العبودية الناعمة هي التي ستقود إلى ثورات جديدة، أيها البغل المخصي.

كانت الأضواء الفسفورية تنقر بللنا ولهاثنا المختلط بقرع وطنين الموسيقى الصينية، محزكة معها نباح كربنكا، ربما تكونت له هو الآخر صورة واضحة عن طبيعة حقدي العاجز.

١٨) وحشة

ألوك ضجر شمس سبتمبر اللعينة بمهادنتها متمطقاً كؤوس البيرة، عرقانة بلونها الذهبي، وزبدها المتناثر على حواف الكأس ببار مونتي كارلو قرب محطة القطار. البار السخي يقذم مزات بزر اليقطين، البيسطاش، والكاكاو المحفص. ثديره بارميدا غاية في الرقة والجمال، يمكنها أن تعوض القمر، يبدو أنها من البلقان. جمال العالم في البلقان، وجمال البلقان في البوسنة.

أشرب في صحة العزلة الحازة منشغلاً بموسيقى نفسي التي تموضع الذات، لكنها لا تتفق معها. استيقظتُ باكراً على الشغب الجميل لرجال النظافة، يخدشون جلال الصمت، ينفقون وجه الاثنين المنبعث من سيول الأزبال لأسبوع تصزم من كثرة الأكل والشرب والمضاجعة. التخلّص من الأزبال في أوروبا ليست عادة يومية، عادة أسبوعية، لكل نوع من الفضلات بلاستيكه الخاص؛ الأزبال العادية يوم الاثنين في البلاستيك الأسود، والمعلّبات الحديدية والبلاستيكية يوم الثلاثاء في كيس أبيض، وثقة حاويات للزجاج في رأس كل تجفع. في بلدي السعيد سطل القمامة لا يعرف الراحة. البلدان الحقيقية تعرفها من سطل زبلها، ومن كلابها. في دوارنا التورابوري تختلط الأزبال بالبشر والبهائم، لن تملك القدرة على الفصل بينها؛ أزبال، روث، عجاج أحمر، صحنات كالحة مخطوطة بسيول الهم، كأنها خرجت للتو من أنقاض حضارة الأزتيك. وشمس حارقة كهذه اللعينة المتسلّلة إلى عيني في شوشرة على ذاكرتي النعسانة.

آثرتُ الجلوس في الطيراس. التدخين ممنوع داخل الأماكن العمومية. الصور الباهتة بدأت تتضح أكثر. وفود المسافرين تذرع وتخرج زرافات من وإلى المحطة. أتعاطف مع فرنسا في دخيلتي على تحفلها هذه الوجوه المختلفة من البشر، هذه الموجات من الهجرة، يخيل إليك أنك اخترقت العالم في بضع ثوان: أفارقة بحركاتهم الرشيقة المتمايلة بأزياء ماما إفريقيا بألوانها المعهودة؛ الصفراء، الحمراء، والخضراء، تحس بأنهم يحلمون بثورة جنسية، ونشر فروجهم الذكرية والأنثوية لشحن بطاريات الفروج البيضاء المنهوكة من فرط برودة الشمال. صينيون بعيونهم الضيقة

وخطواتهم المتقاربة السريعة، لا وقت لديهم، همهم الوحيد لم الأورو في تلك البيوت الصغيرة على شاكلة مصانع. أتراك بقسماتهم وطبائعهم الشرقية الحادة، لا يملّون من الحديث عن أمجاد الدولة العثمانية وقوة سليمان القانوني ومحمد الفاتح والسلطان عبد الحميد، وكيف كان جندهم يبحرون ضد تيارات أنهار أوروبا. ألبان ورومانيون، وما فضل بعد تقسيم يوغسلافيا بعيونهم الناقبة، تنقر بخبث غريب في استعداد لمداهمة وشيكة. وعرب أغلبهم مغاربة وجزائريون وتوانسة، يعيثون في الأرض فساداً، نهب، عربدة، سرقة، مخدرات، لا يبرحون محطات القطارات وأنفاق الميترو، ثقة حياتهم، ثقة مغربات لا تنتهي. يطالعني صوت كهل تونسي نشوان رقيق البخة، يغني مكوراً عجيزته يميناً وشمالاً لاطماً أصدقاءه:

عا الجبين عصابة

الفم يضحك

العيون غضابة

هيلا هيلا يا شوشان

نزرعك تفاحة في وسط كلبي

والله كالتفاحة

شوكو على كلبي

شوكو جراحة

هيلا هيلا يا شوشان.

تعالت الصيحات والضحكات، حينها وخزني شيطاني بتذكر مثل شائع في فرنسا يقول: المغربي أسد، الجزائري رجل، والتونسي زوجتهما.

ألقيت بالكأس الثالثة في جوفي دفعة واحدة دون أخذ نفس لتنميق عزلتي المشمسة، المدعومة بتهاطل أحداث وصور غير مرئبة. العقل البشري ليس محفوظاً في ثلاجة أمام هذا الصهد الجبار. العقل البشري مدية حادة، تشرخ الأحداث والصور بشكل رهيب، فهي لا تتبدد، لكنها تتضاعف إلى الفكرة القلقة، المطاردة، المنسوجة كحرقة أو كرغبة حريفة، غافية، ملفزة بمرتفعاتها ووهادها، هذا الذي يسقيه الفلاسفة: الجوهر الإنساني. وكلّما لاحت تباشير التوافق، ازدادت مسافة البحث كمثل حمار،

علقت عصا ممدودة على قفاه منتهية بجزرة نصب أعينه، يركض، يبرطم، ينتفض، تظل المسافة نفسها، لا يفضل سوى التعب المتوثب في بنية زمنه النفسي المقرون لحظتها بالرؤية إلى حمولة النتائج وسط لب العملية. ما عليك إلا أن تستعجل اليأس، أو تستمر في هذا البحث الذي يسفى الحمار أو الإنسان. في غمرة التعتعة ينسل شيطاني إلى جيبي كاشفاً عن رسالة والدتي. كنت أرجئ الاطلاع عليها لسبب مبهم، لا أعلمه، أمذدها أمامي، وأفك كرمشتها من الحواف. يطالعني خط أخي الصغير الرديء، قد حاول إصلاحه قدر الإمكان من كثرة الضغط على الحروف والورقة، تكشف عن كتابته الحرف بالحرف، تبدو الكلمة غير منسابة مع السطر. رائحة الروث تنبعث من الورقة، أغلب الظن، كتبها وهو يفك رباط عجل. شيطان والدتي رق لحالي هذه المرة بعدما نفحتها ببعض الأوروات. شيطاني هو الآخر رق لحالها، ليس خوفاً من ملك فرنسا كما تعتقد. تعوذت، بسملت، ورضت، وأكدت أن الولد لأفه، مهما يكن من حنق هو بسبب الفقر نعله الله (عوض لعنه)، فأخطاء أخي الإملائية لا يمكن حصرها. تحكي لي عن البشير ولد عفي عبد القادر كيف أصبح دركياً، وكيف رفع رأس الدوار عالياً حين التف حوله الكل في السوق وهو يركب الدجيم(الجيب):

"من ولدت تسفي عليه، سنقيم له عرساً، لم يشهده إنس ولا جان، وسنقلي السم على نار هادئة لدوار الحريشات والجاملة وأولاد ساسي. وفي الختام، لا يمكن أن أصور غضب والدك في قبره، فقد زارني في المنام، وهو ينتفض غرقاً كالمحموم، يصيح ملء حنجرته الماء، الماء، وفي الغد قصدتُ الفقيه سي إبراهيم ولد الشايب لفك طلاسم هذا الحلم المزعج، حتى يرتاح والدك في قبره، الله يرحمه وينعمه، فقال الفقيه:

"إنه يطالب ببئر قرب الحظة".

قصدتُ الولي سيدي مبارك، وذبحتُ ديكاً أسود، حتى يستريح والدك من أولئك الشياطين الذين يحفون به. أتمنى أن نحقق طلب والدك قريباً، ليرتاح في قبره ووحدانيته".

وحشة دفينة انبعثت في نفسي بغتة كتلك الأعاصير الصغيرة فاتحة غرف ذكرياتي:

والدي وراء زوجة الحرث، يهش بعصاه الطويلة قرب أذنيهما، فيجزا المحراث في هلع وترقب من شحطة مفاجئة.

جذتي بنت البتول تقعص فعلها وراء الحجارة المكومة جانب بيتها.

الفقيه سي إبراهيم ولد الشايب يصيح في طلبته بوعيد تجفل منه البهائم. يرتد صوت طلبته ككبة من الزنابير.

المغنية الخودة في عرس عقي الجيلالي تصدح:

"مزينها تخليفة معاك ياالويطيفة".

حينها ترتج النفوس بالحمحمات والتأوهات المجلجلة.

البشير ولد عقي عبد القادر يفعل أفعاله على الدجاجة مسلوخة العنق من يومها نغير اسمها من المسلوخة إلى"حليمة الزاز".

جذي يغتسل في الوادي، يطش الماء على كتفيه، ويدعك بظهر يديه إبطيه غير الحليقتين متخلصاً من جنابته خارج الحدود، خارج ينبوع بنت البتول الناشف.

زهرة بنت الأعمى ترهق كلبها حسينة بالحجارة بعد أن فضحها مع جيرانها بسرقاته التي لا تُعد ولا تُحصى.

وحوحات جارتنا حليمة في فدان النخلة من فرط اللذة، وهي تأمر عقي لحسن أن يتركه في مكانه.

كانت الشمس قد ضربت لب السماء في شكل عمودي. يبرز الصوت التونسي النشوان وحده هذه المزة، متناسياً جماعته مفرداً بعينيه صوب الشمس، يغلي لزمنه النفسي الخاص، ربما وخزته الوحشة هو الاخر. فينبجس الصوت العذب بالبحة الرقيقة:

بالله يا أحمد يا خويا

يا راكب العتيد

جيب الخبر منك

لسمع عن نجعنا دريد

ودريد قالو ها هم رحلو

حظو على بعيد

وجمالهم بالجحف تنتقل

سيأسهم عبيد

وخدم بالصوات تولول

زغاريدهم تزيد....

١٩) مفاجأة تؤشر على احتمالات لن تحذ

انتشلني هاتف مونيكا من غفوة العمق اللذيذ للبيرة الأولى، كنشيد بروسي بخطواته الأربع المفروعة على حجر قروسطي: "حمامو ثقة أمر طارئ، أرغب في أن تعجل إلى العيادة من فضلك.. بيزو".

لم تترك لي حق القبول أو حق الرفض. ثقفل الهاتف، لم أعد أسمع سوى طيط، طيييييط. المسافة بين بار شافي وسانت اسبريه قطعة من العذاب، أنقب عن غائية الأمر الطارئ بقلب واجف وركبتين منهارتين، كفرٍ ينتظر حجة واهية لإسقاطه في وحل مميت، أصول بفكري عن الهفوات وسوء النية لخطاب ملتبس. يزفّ خاطر يقول: ربّما علمت بعلاقتك مع السيدة مارتين. هكذا تنهشني الأحداث كهريش كلاب سائبة، تعبث بجيفة على قارعة الطريق. دبيب النشيد البروسي يتبذد في الطريق إلى لزوجة عطنة. أدفع بأصبعي تحت إبطي، وأستروحه في توذد. رجلي لا تستقرّ داخل الحذاء بفعل الفرق، تُحدث صوتاً قريباً إلى الضراط ، يجذبني الحذاء إلى الخلف. تمز أمامي كل أطياف المفلولين بسخط أبدي في الميثولوجيا القديمة. أرى نفسي عارٍ المؤخرة، أداري الصخرة الثقيلة، وألتفت إلى الخلف، مدارياً كذلك مؤخرتي من عيون الطامعين، سيزيفي الخاص كما أتصوره دائماً.

تزغث الباب، كرينكا يبدو غافياً في بيته السكسوني. أقفل نوافذ وجهي استعداداً لأية مفاجأة. متصنعاً غضباً يتقطيب الحواجب وكرمشة الأنف. مونيكا تترنح في أحضاني كطفلة سعيدة بمجيء ضيف عزيز. لم أصخ من قسوة الاحتمالات، أضمّ بشفتي على أسناني ضماً بليغاً. أرسم صورة مخبولة لطبيبتي مونيكا، تجذبني من يدي جهة المكتب هامسة:

ـــ ابن عقي في الداخل.

تقدمني إليه:

ـــ حمامو: mon copain.

كان مجحفاً حقاً أصل هذه الكلمة في جذرها اللغوي التي تعني شريكي

في الخبز، لكن الفهم يتجاوز هذا الأصل إلى اقتسام الفرح والحياة والسفر والشرب والتطبيب والعبودية الناعمة أيضاً. يُبدي ابتسامة هادئة ماذاً يده بمصافحة حازة:

ـــ تشرّفنا، عبد العزيز السطيفي.

أتصنع عدم الإلمام، فأكرر: السطيفي.. السطيفي.

مشيراً له، جامعاً بسبابتي معاً:

ـــ يعني.. يعني.

يقول بعد أن كشف عن أسنانه بابتسامة أكبر ومعيداً حركتي نفسها:

ـــ يعني.. يعني.

أجراس كنيسة سانت اسبريه تُقرع اثنتي عشرة نقرة، هذا النقر الخبيث يذكّرني بالموت الوشيك دائماً، يهرع الهلع إلى كل أحشائي، فأحس برغبة في القيء من فرط الاشمئزاز. الموت نهاية الأحلام، أهلي يجدون ميزراً أو عزاء أليفاً، يؤكدون أن ملك الموت، هو الآخر ستطاله سطوة الموت، حينها يدب الإحساس بأن كل من عليها فان، وإذا عفث هانث، على الأقل الموت لا يقطع الرؤوس، لا يُرسل قذائف الهاون اعتباطاً، لا يُلقي بالقنابل العنقودية والهيدروجينية عبثاً، و... للموت لغزه الخاص في عزل الطاقة الإنسانية، التي هي الروح بمعزل عن الجسد في هدوء تام، لا يعرف وضعه إلا من انتهت طاقته. هذه التهيؤات تدفعنا حتماً إلى زحزحة القلق الميتافيزيقي المغلول بأصفاد الخوف من العذاب وتبعات القبر اللعين. كان والدي يخط بعصاه على تراب مقبرة سيدي مبارك راسماً مربعاً أو شكل بيته الأخير عندما تنتهي طاقته هو الآخر. يختار مكاناً أقرب إلى قبر والديه، لم أكن أملك القدرة على فرز هذا الطرح، هل هو التفاعل الإيجابي مع هذا الغريم، والاستعداد لحياة جديدة قرب الأم والأب، لشرح كيفية تعامله مع وضعه الجديد؟! أؤكد أنه كان يعلم حتمية الموت، فيغني للموت والحشر معاً، كما يغني الشعراء القدامى لأباعرهم وخيلهم. ربما كان يرشي الموت باستحضاره، والتحايل عليه كفنان يرغب في التزلّف والرضا إلى سيده:

لا إله إلا الله كلمة عظيمة

وراه الصلاة على نبينا

وهي بابا شفتهم شفوني وزركو دموعي

غدا تحضر راه حس الطبول تتكر

راه شفتهم شافوني وهي بابا ولا إله إلا الله.

سألتنا مونيكا عن مكاننا المفضل لوجبة الغذاء، موجهة السؤال بصيغة الجمع، لكنها تقصد ابن عمها. الضيف البشير المبشر المزحزح لمفاجآت لن تحذ. يهز كتفيه محركاً عينيه الواسعتين المنسابتين مع لحيته المدهونة كأولئك الممثلين في الأفلام الدينية، رادفاً:

ـــ لم أزر بايون من قبل، إني كالأعمى في السوق.

أتدخل، لأفك طوق الخجل عن عنقه، فأقول:

ـــ إلى بيارتز حيث الشمس والبحر.

مونيكا تفتح عينيها كأن الفكرة تبعث في مهجتها سخراً وغاية في الوقت نفسه. تلج مطعم قصر نابليون الثالث، حيث كان يقضي عطلته الصيفية. هذا القصر المطلّ على البحر، المنفصل عن الثقل السياسي إلى الفهم الذاتي، والتأمل المنغمس في طبائع وسلوكيات البرجوازية. التاريخ الفرنسي مبهر حقاً حول الكيفية التاريخية، التي ننظر بها إلى تحولات العالم عبر طروحات مدعومة بأنساق، وأفكار، ومخططات محبوكة بدبلوماسية، لها باع طويل، فينجلي هذا السمو مع رفرفة الراية بلونها الأزرق والأبيض والأحمر على جبين الزمن كرابية لتأمل البشري، ليس بدافع عقدة الاستكمال المنهوشة بالرغبة في الاستفراد بالعظمة والإجلال، ولكنها الرغبة الخفية إلى العذوبة البشرية المحسوسة، عكس الشرق الباند المحاط برغبة التفويض الإلهي أو الحق الإلهي.. الأمير.. الرئيس.. الخليفة.. الإمام.. وإن أخذ مالك وقصم ظهرك. في فرنسا لا تطالعك صورة الرئيس إلا في الأماكن الإدارية البحتة فقط.

أرسلت الشمس أشعتها الخريفية على أطباق شرائح اللحم المغموسة بالثوم والبقدنوس وكؤوس نبيذ بوردو الصافي. الضيف يتردد في البداية بعد أن هأها بضحكة مبهمة من وضع الطاولة:

ـــ لا أشرب كثيراً، لكن، ما دام الأمر يتعلّق ببلد الفرنجة، فلا بأس أن نفسخ العقدة مع الجزائر، الهدية لا تُرد.

يده المشعرة تنقر اللحم بدون الحاجة إلى السكين والشوكة، يغرس

أصابعه كذئب استفرد بنعجة قاصية، مصطكاً بأسنانه في صوت قريب من بغل رامياً برأسه في مخلاة شعير. يرفع رأسه، ينتابه شعور بخرق البرستيج اللائق بمواضعات التمدن والبروز. يعيد رفع يديه عن الأكل، ويقول بصوت مسموع لإثارة قناعته مدافعاً عن طريقة أكله:

ـــ ربما تحسنون ببعض الامتعاض من هذه الطريقة البدائية، لكنها الطريقة الأنسب للحفاظ على صحتي.

يرفع السكين والشوكة إلى فوق:

ـــ لا شك أن هذه الأدوات عبرت الآلاف من الأفواه، يعني أنها تتعرض للآلاف من الفيروسات.

يقبل يده اليمنى:

ـــ لكن هذه اليد الناعمة والأداة الجميلة تحتاج إلى العناية بها فقط، فهي سكيني وشوكتي، أليست الطريقة الأنسب للأكل؟

طأطأ رأسه، وعاد إلى أكله، يحتسي نشوة النصر الداخلية، بالفعل قد أفلح في سد شهية الجميع بهذا الطرح اللطيف، فاستدارت العيون تلاحقه بمزيد من الإعجاب، في انشداه، كأنه رشنا بمبيد كيماوي.

اكتفى الضيف بشرب كأس نبيذ واحد، وفي العقبة طلب طاس قهوة لابازا بذل الحلوى أو الفاكهة. يرشف قهوته في صخب بجرعتين متتاليتين، كمن يخاف أن يضيع مذاق البن بين لهاته، ينظر إلى الطاس من الداخل دون أن ينظر إلينا، فيردف:

ـــ لقد نزلت بفرنسا منذ أسبوع تقريباً عند أخي موسى في بوردو، لم تكن لدي رغبة في المجيء إلى فرنسا، والذي أقصد ـــ عفك الجيلالي ـــ هو من أكد ذلك، فأشفقت على شيخوخته، ودموعه التي تبلل وجهه كلما ذكرنا سيرة عفي احميدة. منذ بداية التسعينيات غادرنا عفي احميدة، لم نكن نعلم الوقت بالضبط الذي رحل فيه، انسل في هدوء تام، بعد أن سمع خبر قتل صديقه إدريس إمام مسجد الحي، والتمثيل بجثته في طريقه لأداء صلاة الصبح. انقطعت كل الروابط، ولم نعلم عنه أي شيء، هل هو حي أم ميت؟ حتى أكد لنا عيسى وهو واحد من أبناء حارتنا القديمة، أنه رآه صدفة بمدينة صغيرة على الحدود مع إسبانيا تدعى: سان خووو ، لم يفلح في تذكرها، فمسح بيده، وأخرج حافظة أوراقه، تدعى: Saint jean

pied de port ـ ناداه: عمي احميدة.. عمي احميدة. التفت إليه التفاتة حزينة، واختفى بين الدروب الضيقة، يقول: إنها على شكل رابية، تستقبل الحجاج الراغبين في الراحة لإكمال الطريق صوب كومبوسطيلا. وبناء على بعض الأخبار الفقيرة التي كنا نسمعها من عمي احميدة أن له ابنة في بايون من نصرانية، تمسكنا بهذه المعلومة، كما يتمسك قنديل شحيح بآخر قطرة زيت. قبل مجيئي كلّفت أخي موسى بالبحث في دليل الهاتف عن اسم مونيكا السطيفي، لم يتطلّب ذلك منه كثيراً، فكان أن دفعت ملف تأشيرتي بغية الحصول عليها في أقرب وقت، بحكم رأسمالي في تجارة الخشب، لم يكلّف ذلك وقتاً طويلاً.

أخرج صورة يضعها على الطاولة، متلفظاً بشفتيه، فأدرك أنه غاب عن طاس قهوته. صمت رهيب يخيم، ونحن نرقب الصورة، نبحث عن سرّ خفي. مونيكا تنساق لطرح أسئلتها الداخلية، تقلب الصورة من الأمام والخلف. تشدها فكرة البعث المفاجئة. عندما خلصنا من استقبال فكرة البعث، تضاجعنا بما فيه الكفاية. تركنا الضيف في شقتي الشرقية الهوى، يأخذ قيلولته، تضاجعنا في صخة البعث الجديد للأب. فكرة البعث لا تخلو من خداع في تبني الحماس المفرط، كانت المضاجعة داخل هذا الإطار للبناء النفسي لمونيكا، تلحسني من تحت لفوق. تخرج من الإطار النفسي الأول الخاص بالعبودية الناعمة إلى الإطار النفسي المتبني لفكرة البعث، لكن أشك أن هذا الإطار الثاني سيتحول إلى قاعدة نفسية. العبودية الناعمة لها جذور ضاربة في القدم، ولها ما يبرزها ضمن أنساق الاحتمالات. تجربة الاحتمالات هذه تكرس أفق الانتظار. الصورة التي تؤجج نيران فكرة البعث، لا يمكن أن تُعاد مرّتين بالدقّة نفسها داخل الزمن الافتراضي المحيط بها رغم الشروع في فك شفرة الصورة، والإلف ملياً بأبسط الأشياء التي تؤثث فضاء الصورة؛ شجرة الأوكليبتوس الباسقة دون النظر إلى ظهر الصورة لضبط تاريخها، سندرك أن الفصل كان ربيعاً. اللحاء الرمادي السماوي للشجرة يؤكد ذلك. بهجة احميدة بطاقيته البيضاء التي تقبع على مؤخرة قنته، وقفته في استعداد لتمجيد الذات عبر ابتسامة فاترة. كان احميدة يعلم ملياً أن الصور تسقط في يدي الناس. سطوة الاحتمالات حينها التي تتموقع داخل بنية الافتراضات، لنحش بدفء أكثر، ونوظف الادّعاء، وسرعان ما يفتح الإطار الأول غرفه الموشومة داخل المنظومة النفسية المسطّرة من قبل. غزت سحابة كبيرة خد الشمس اللامع، وتحوّل إلى خد أسود كزوجة فقدت بعلها في حرب خاسرة. القطرات الأولى من السماء ساخنة، ليست حاقدة، نحس بها كالممرض الذي يلهيك بوضع يده

على مؤخرتك قبل غرز شوكة الألم. كرينكا ينبح بنباح لافت، يعكس موقفه النفسي هو الآخر في تبني الاحتمالات والافتراضات المرئية داخل ساعته البيولوجية. كانت مونيكا قد أطفأت أنوار اللذة، ونقرت ضوء الغرفة، ترقب الصورة وكلمات روي تشارلز المنسابة من بحته القاحلة توحي هي الأخرى بفكرة بعث الجاز كذلك.

٢٠) السفر إلى فكرة البعث

رذاذ كثيف ينخر الأرض، يغسل وجه الخريف البهلوان المتلاعب بحقه بين الفصول. تستيقظ المدينة على عجل، بل تتحزك أدواتها البشرية محدودبة بقاماتها، تستعد لفصل القر البغيض، لم يكن المطر وحشاً رهيباً في بداياته، ستبغضه بعد أن يجذب برده القارس من أقصى الشمال، ناخراً العظام كنصال حادة حاقدة، حينها سنحكي عن الشموس القاسية، مسرفين في الذكريات الحازة، نتلذذ بالمعاشرة الروحية المبهمة، كأننا انتصرنا على عدو مشترك. مونيكا في أبهى حلّة على الإطلاق؛ كسوة سوداء كاشفة إلى حد ما، مفتوحة إلى حد الصدر الناهد المطلّ كأرنب صغير، تحس أن هذا الأرنب غير مرتاح من فرط ضغط الحمالة التي ترغمه على إلصاق أذنيه، فيغيب المنخفض. الشعر الأسود المخملي المعقوص بربطة الحصان المصبوغ وفق الفصول: الأسود للشتاء، الأكاجو للربيع، والأشهب القريب إلى الأحمر للصيف، أما الخريف، فهي لا تعشقه، سبب تعاستها في سقوط شعرها وإفرازات فرجها نتيجة التبعات النفسية. الأذنان منفقتان بقرط طائر رابض في عشه. العنق مطوّق بأيقونة علم فلسطين، يشذها سمط من الجلد. لم أعلم لماذا لم تلفّ عنقها كالمعتاد بشال الباسك، ربما كانت لحظة ميلان إلى الشرق الذي تحذره فكرة البعث. الضيف يبدو في حالة من الشرود العام باحثاً بعينيه الواسعتين وسط فروج الأشجار، يشذه سيل الغابات الذي يغلّف الطريق، باستثناء بعض البيوت المتفزقة، تعكس جلال الصمت الذي أثار فيكتور هيجو وإدموند روستان وإرنست هيمنغواي ورولان بارت الذين كتبوا أجمل أعمالهم بين لابور ونفارا. المطر ينقر الزجاج الأمامي للسيارة برنّات موسيقية. أتلف رنّاتها بالماسحة، محدثة صوتاً مقزّزاً، كانت عيني على الطريق، وبالي يصول حول المقاربات والمقارنات للحج سواء عند المسلمين أو الكاثوليك، لماذا اختار احميدة هذه البلدة الصغيرة داخل مواضعات الروح الخاصة؟ تتمدّد الإجابة على الطريق، على الخط الأبيض الفاصل بين الطريقين، قد يسمح بالتجاوز عند تقطيعه، هكذا هي الروح عندما تتقطع أو تحيد عن الخط الأبيض، وتلامس بياضاً جديداً في طريق أخرى رغم التحكم في القيادة وفرز الرؤية الممتدة. هذه الحشود الحاجة على الطريق المطوّقة

عنقها بالصدفات البحرية كرمز للبحث عن الروح الطاهرة، والمدبجة برحلة تستغرق الأيام الطوال، تثير الكلّ في التفاعل والتعاطف معها، فتفتح البيوت الخاصة والغذاء اللازم بأثمنة في المتناول. الحج رغبة تحدو الجميع في تجلّيات الطهارة عبر بقاع العالم، حج المسلم، حج الكاثوليكي، حج البوذي، حج اليهودي..أليس الإنسان حجاً والحج إنساناً؟ رغم تقدّم العالم التكنولوجي الباهر لم يبرح روحه الملغزة إلى بحث تشوبه مظان وهواجس يلتبس فيها الخلاص مع الطهارة. هذه الروح هي الاستعارة للمظاهر الملفوفة داخل الإنسان، فتفيض ذاته بهذه المجادلة الخفية للأقانيم والقدسيات. زنابير دماغي تحتاج إلى سيجارة وقهوة، تقبران النشوة داخل قصبتي الهوائية. أقف في بلدة أوستريتز، تفتح مونيكا الباب على عجل، يبدو أنها ترغب في التخلّص من حالة البول، وهي حالة نفسية، تلازمها دائماً في أثناء السفر، لم أرغب في ذكرى غظفتها المنهزمة. أشار الضيف إلى إعجابه الشديد بالغابات الكثيفة اللامتناهية:

ـــ لا تزال غابات أوربا عزباء، لم يدخلها ذكَر المنشار بما فيه الكفاية.

تكلّم همساً قرب أذني، فاتحاً فمه بضحكة مجلجلة، تؤكّد حرصه على التفوق الدائم في قناعته واختياراته. يطلب كأس ريكارد، يبدو أن شهية الشراب انفتحت لديه:

ـــ كأس واحدة كافية لإشعال مدفئة الذات.

أومأْتُ له بدندنة من رأسي مؤكّداً صحّة كلامه. مونيكا تخرج من التواليت، يتولّد حينها أن المرأة تتبوّل وتتغوّط هي الأخرى، تفقد ملائكيتها في التصور العام، خاصة عندما تداهمنا رائحة الصابون عقب عمليات الإفراغ. نأكل الطريق كما يقول الشيخ البيروفي فركاس، عندما نكون في سفرة بالسيارة. الضيف يرمش بعينيه كحيوان أتلف الرؤى وسط الضوء. تُخبره مونيكا بأننا وصلنا إلىSaint jean pied de port... تبدو كشاعرة متصوّفة، تحتفظ بذكريات السيحان، وفك الخُجب، أكثر منها مهد الروح والذاكرة اللاهوتية. يستقبلك طيف من التناغم الخالد المعجون بروح صافية، يقسمها واد لانيف إلى قسمين. نقف بساحة شارل دوغول. يطرد الضيف كسلاً بعد أن مدّ يده، وجمع أساريره في حركة كطفل نزل تواً من ظهر أمه. نلج إلى بار "عند لويس"، الاسم المركون على باب البار بالأحمر الضوئي. أصحاب البارات هم من يملكون الذاكرة الحية، ويلفون بشؤون الناس، ويُعاينون الحكايات مستأنسين بالخيبات.

دخلتُ على عجل بغية قتل رغبة الضيف في التفرد بتحقيق نجاحه العائلي الذي كلّفه رحلة البحث من الجزائر إلى فرنسا. أمد الصورة للكهل المنتشي في الكونتوار، يبدو أنه قضى ليلة رائعة، أحس فيها برجولته التامة، هذا حال العديد من الرجال، عندما يحققون فوزاً ذاتياً، تئن تحته المرأة مشعلقة بأرجلها طالبة المزيد، حتى ترتمي بجانبه، وبقايا دبيب اللذة يكسو فتحتها، يبتسم ابتسامة النكاية، فيزف خاطر، يقول: الآن، نم، أيها الرجل الخبير.. لعنة الله على المرأة، أسرارها كلّها في فتحتها.

حزّ قبعته الباسكية منبتاً بها على جانبه الأيمن هذه المرة. أمد له الصورة، وأطلب كونياكاً، أجلس قبالته على كرسي طويل كأرجل نعامة. يتفحص الصورة بإنعام، فيصرخ كأنه اكتشف دافعة أرخميدس:

ـــ آه، صديقي الجزائري احميدة، احميدة.

أجاريه، وأقول:

ـــ نعم، احميدة، احميدة.

يدب في الكونتوار بمشية محدودبة بعض الشيء واضعاً أصبعه على أنفه بعد أن قام بثنيه قرب أنفه كاشفاً عن أنف احميدة المعقوف:

ـــ إنه يسكن في زنقة الكنيسة، كُنْ على يقين، ستجده عند ديدي، فهو يعشق أكل هذه المرأة، لكن من أنتم؟

تتدخل مونيكا:

ـــ أنا ابنته.

يحني برأسه، يمسح كأساً بمنديل أبيض:

ـــ آه، أخبرني بذلك.

أشار من الكونتوار إلى مطعم ديدي قرب قوس زنقة فرنسا. نذرع المطعم. صمت رهيب يخيم على الأجواء، لا تسمع سوى همهمات كدبيب النمل. نجد رجلاً، يطالعنا محياه بهية يتقاطع فيه الشرق والغرب، لا يزال محافظاً على شعره الكثيف الأبيض، ولباسه العزركش كأولئك الفنانين الذين أدركوا العمق الحقيقي للحياة، وارتباطها بالجمال والفن، الذين يحتاجون إلى حيوات أخرى حتى يكتشفوا السر. حدس الأبوة لا يخيب، يرتمي في أحضان مونيكا، يُمطرها قُبلاً، ويجهش ببكاء ممض، يفك

ذراعيه، ويلفهما من جديد.

عبد العزيز السطيفي ينتظر عفه، وأنا الغريب عن العائلة كذلك أنتظر في جو مشحون بالعواطف والغيابات الاضطرارية أو المقصودة، لكن كنت حينها أحس أنني حرمث عبد العزيز السطيفي من تحقيق رغبته.

٢١) زيارة لا كالمعتاد

لم أكن أتوقع أن طاطا مارتين ستحن للقائي مرة ثانية بعد أن طال غيابها عن زيارة الأحد الصباحية، لم أهتم بأمر غيابها بما فيه الكفاية، كنت أدرك أن النساء البرجوازيات يبدلن عشاقهن، كما يبدلن جواربهن وخروقهن اللينة التي تمتص إفرازات محاشمهن، حتى تتجنبن الوقوع في شباك كهل، يشفط دمهن ومالهن. ثقة رجال للكراء، بل ذكور للكراء في كل حين وأمد. المال أولاً، ثم الأعمار. العمل الوحيد الذي يداري به الرجل خيبته ويحتمي بوجوده الحقيقي هو حبس أنفاس النساء، حبس أنفاس فروجهن، ذلك هو النصر الأكبر، أو ما تبقى من حفظ ماء الوجه لرجل فاشل.

بايون ترتجف مقرورة هذا الصباح من شدة الثلج المتكوم على جبال البرينيي. المطر يحتفل بعنفوانه، ينهمر بحبات غليظة. بار شافي دافئ إلى حد ما، من خلال المدفئة البترولية المزروعة في الوسط. يتبجح بطول عمرها الذي شارف على عشر سنين، كأنه يواسينا أو يقدم لنا عذراً على سيل الدخان المتسرب من نافذتها المشبكة. الشراب يقتل الاحتجاج، الآن أدرك لماذا دعا المسيح حواريه بالخراف، فنحن خراف كذلك، نبحث عن الدفء والسعادة محتمين ببعضنا. الخراف لا يمكنها أن تسعد إلا إذا كانت مجتمعة، نشرب، نمور برؤوسنا في حركات نشوى. تزيد المدفئة من دخانها المتبدد داخل سعادتنا وأخوتنا الخرفانية. تقبلني طاطا مارتين قبلة طويلة. القبلة في الغرب لا يحاسب عليها ولو بسوء النية، ليست مدعاة للزنا. تتفرس ملامحي في وداعة، تمرر يدها على يدي، يرتج صدرها بتنهيدة:

ـــ الحقيقة أن طيفك لن يفارقني في كندا رغم مأساتي، فقدت ابني البكر بسبب السرطان اللعين.

هاجمتني مجموعة من الهواجس دائماً عند ذكر الموت، أتأفئني مرفوعاً على الأكتاف المتمايلة في اتجاه واحد صوب مقبرة سيدي مبارك، سأرقد إلى جانب أهلي. أسل يدي في سرعة من يد طاطا مارتين، كأنها سثلفي بفيروس الموت الوشيك على عصبي الحركي، أفرقع أصابعي، تسحبهما

طاطا في هدوء. موسيقى الكلارينيت للشاب الإيرلندي في الخارج تجتاح البار، كدث أصرخ صرخة قوية، فتنداح طاطا بصوتها:

ـــ رغم برودة الجو في كندا، آثرث البقاء هناك مع زوجته وأبنائه، هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فحاولث تجنب أعز الأصدقاء وأنا على هذه الحالة. غياب ريشارد ترك هوة كبيرة في حياتنا، لم نكن نُنعم النظر في فلسفة الموت، كلّما سمعت هاتفاً أخاله ريشارد، سرعان ما أعي أنه في أبديته، سينعم بالخير حتماً، لأنه كان يكرّس كل وقته للفن، رغم نجاحه في أعماله الخيّرة وشركاته التي لا تُعد ولا تُحصى. كان يتبنى فكرة المواطن العالمي، فقد ساهم في بناء عدة مستشفيات في كل مناطق العالم.

أبديث رغبتي في البكاء ومعانقة طاطا، تداركث الموقف بهمهمة.

وبعدها بتأوهات لا معنى لها سوى التصنع بالمواساة، طاطا لا تعلم أن الموت يرهبني، فتغرغر أمعائي من شدة الخوف، وأحس بالرغبة للدخول إلى المرحاض. أرقب الكأس الفارغة من الداخل، كأنني أطلّ على عمري الحائل، فيبدو القعر كالكهف الرابض وراء قبة سيدي مبارك بجلاله المحفور بوشم الجنية المعششة في ضمائر أهلي، لهذا فهم يختارون دائماً اسم عائشة للجنية، واسم ميمون للجن الذكر. أطلب كأساً أخرى لملء الفراغ، وتغييب القعر، بالأحرى تغييب عمري وسط الفقاعات التي تتوالد من رحم بعضها. تضغط طاطا على يدي كأنها تنبهني، كان حجم الدخان قد أصدر موجة تلاشت قرب وجهي، فتردف:

ـــ لهذا كنتُ لا أرغب في أن يشعر أحبتي بالحزن، ويُصدرون آهاتهم بعطف على طرح خاض في ظرف وجيز، يترك ندوباً وجراحاً لا تندمل. الإسراف في الحديث عنه يورث الأرق. الآن بعد هذا العمر خلصتُ إلى أن أعيش كل يوم بهفة ومتعة إضافيتين.

فتر فاه طاطا عن ابتسامة باردة، فبدت جميلة في هذا الوقت، وطفت عليها الوسامة أو ربما أنني تخيلتُ الأمر من فرط الشراب، تردف:

ـــ لا أفضل من السيدة لا دوكيسا دو ألبا، حين تفتخر أنها تعيش الحياة بطولها وعرضها، وتتزوج باستمرار. همهمت ريحها في الحقيقة على قلبي، وناوشتني الفكرة، وفكرتُ كذلك أن أتمم ما تبقى من عمري في الحب والسفر، وأن أرى العالم بمنظار مختلف. يفعلها الحب دون سواه. لا أعتقد

أنني سأنسى الليلة التي سهرت فيها مع حياتها في برنامج تلفزي، يسبر أغوار البواعث، وهي تحتفل بزواجها من الموظف البسيط في سن أبنائها، بدعوى تتويج براهين الحب على أرض ثابتة لا تضطرب، إنما يُبتدئ بطقوس الزواج ومراسيمه، تبدو السيدة لادوكيسا كأنها في العشرينات من عمرها، توزع البسمة على الحضور بقصر بلاصيو دي دوينياس، مفتعلة خجل العذارى، مؤكدة لحظة الشوق إلى تبني فكرة القداسة لمؤسسة الزواج بالكنيسة لاشابيل.

حاولت طاطا أن تقترب من وجهي غارسة عينيها الزرقاوين في بؤبؤي عيني، كأنها على وشك البكاء، أو على جادة الذكرى، المهم هاتان العينان الناعستان يستحيل أن تحيط بمكنوناتها، يرتسم على شفتيها شبح ابتسامة دون فتحهما:

ـــ لا أعلم كيف سنقبل هذه الفكرة، فالحب داخل مؤسسة الزواج يُشعل النار بولاعة واحدة دون الحاجة إلى ولاعات مختلفة.

أصدرت تنهيدة كبرى، فارتج صدرها إلى فوق، كأنها على وشك أن تطير من فرط التشبيه، يبدو أن فكرة اضطرام النار حزكت آخر عضلة منسية في حواسها، تميل بوجهها على راحة يدها:

ـــ لا أخفيك سرّاً، فقد تجاوب معك جسدي وقلبي، يا صغيري الأسمر. إنك تملك سرّاً عجيباً في ترويض الخيول، بغض النظر عن عمرها، فتنساق إليك في وداعة، كأن عصاك الشخرية الناعمة وأنت تهش بها على الجسد المتشغب والمرهون بخيبات سابقة، تعضعضه بلطف، فتنبعث تلك السادية أو المازوشية وفق رؤية الطرفين في صمت رهيب. لا تفكر أنني أرغب في سجنك بتلك الأصفاد التي تحد من المغامرات داخل التعذدية والانفلاتات اللحظية، لكن لا أرغب في أن أرى أو أسمع شيئاً من هذا القبيل، فما لا تراه العين، لا يغتم به القلب كما يقول المثل. فأنت تعلم أن قلبي لم يعد قادراً على التحفل.

تلطم يدي بلطمة خفيفة بعد أن سوّت من جلستها:

ـــ أتودّ أن يتوقف قلب طاطا عن الخفقان، يا أسمري اللطيف؟

كانت عيناها تشيان ببريق أخاذ، بل تشغان بقحب فسن محبوب، يختلط فيه النضج والرؤية المتموقعة داخل بنية، تحكم الجسد، فتتأثر كل الملامح، وتصبح طاطا جذابة كأميرة من سلالة ملوك اسكتلندا التي تتحذر

منها لادوكيسا دو ألبا نفسها. دبيب نشوة البيرة اللعينة يصل إلى موطن الأسرار. مخيلتي تنفتح على طروحاتي الجسدية، بميولاتها المحسوسة، فأنا لم أوفق في كل علاقاتي الجنسية في رصد التوازن بين جسدي وجسد غريمي، إما أن أكون عبداً خاضعاً لتقرير جنسي غير متكامل، أنساق فيه لترتيبات قد شظرت من قبل، أو أكون سيداً أو فارسا كما تتخيل طاطا، والزج بخيولي سواء المروضة أو غير المروضة في أتون ذلك الدبيب الهارب، رغم بحثي عن إمكانية تأطير هذه الحالة بين الإخفاق والتمجيد، ثقة كوابح ونداءات تُطالبنا بالإجابة الفورية، تلك الإجابة الممتدة بين الحسّي والملموس، فنتصنع إجابة غير شافية، ونقول بالحرف:

"هذا حال الدنيا".

النداءات الخفية لا تعترف بقول الجذات، حينها سيتشعب الجواب، ويتحول إلى مشاكسة ليبيدية، تتصرف وفق رؤيتها كاشفة عن تحديد جوابها الخاص باستخدام إشارات اللاوعيها غداة نوم الوعي، وإقبار قدر الأنا.

طاطا تحدق في البعيد في أقصى السقف، تتعداه إلى سخر الإيلامات والاستشرافات والعوالق المنثورة الساحرة واضعة يدها اليسرى في يد المروض الأسمر، واليمنى تلاطف شعيرات صدره الشحيحة والمتفرقة كأشواك العوسج اليابسة:

ـــ لم أستطع النوم ليلتها رغم قتل كل الأنوار في غرفتي، أحاول إيجاد صيغة تُلملم ما تبقى من عمري في أحضانك، فيشغ فرح مبهم كطيف، يعلن انهمار شتاء الحب المدرار، والانتعاش برذاذه، في لحظات، تبدو فيها الطريق قريبة المنال. كانت دموع الفرحة تقول: "إنه الملتمس الأخير، يا مارثين، حتى لا يجف ينبوع الذروة والحياة".

تسللتُ من فراشي في الصباح الباكر، والطيف يلاحقني، فآثرتُ أن أصول في رواق ملابس العرسان، وقعت عيناي على كسوة بيضاء جميلة مسرفة في الأشلاء المتطايرة، كأن المصمم أراد أن يهتم بالحفيف أكثر من الشكل، كانت السيدة صاحبة المحل ترمقني بعيني الاستغراب، تتقدم بخطوتين، ثم تعود محاولة أن تسألني، فتعدل، زاد بريق عينيها كقط في الليل حين أخبرتُها عن زواجنا، كلّفت نفسها أن تختار لك البذلة السوداء بقميصها الأبيض وربطة عنق فراشة سوداء، فقالت:

ـــ زواج ميمون، سيدتي، ودامت لك الأفراح، وطاوعتك الأقفاص الذهبية.

بعض العبارات تبدو جذابة خاصة تلك المحفوفة بأقوال المجاملات المعهودة والمتمنيات الرائقة، ومع مرور الأيام تتبذد نشوتها، ولم يفضل سوى صوت قعقعة الأقفاص وهي تُصفد إلى الأبد.

٢٢) احميدة السطيفي (الباب الأول)

(أوف.. أوف.. شوف الناس راهم طوب وحجر، ولكن في الدزاير خويا حبيبي راهم سنيح قاسح).

أقول قولي هذا، وأفتح الباب الأول، قد نسفيه باب التراب الأسود، أو باب الولوج. كانت الجزائر تبدو على شكل متلفات ومربعات وأشكال هندسية أخرى، أعجز عن وصفها. فتحت عيني قدر الإمكان لرصد سطيف العالية من السماء، من عل، وهي تترنح على جبال مفرس وبابور، يتحقم ذلك التناغم المشمس، فتنقشع فرحة، تتقاطع مع الاستعداد لحزن وشيك، لا أعلم لماذا أحسست أن الجزائر أصبح شعرها محلولاً بعدما كان مجدولاً بضفيرتين مفروقتين بخط أبيض، ومفاتنها بارزة، تبعث على روائح وعطور مستوردة، ففابت روائح الصندل وعبق الند والسرغينة. روائح الانجذاب نحو ينبوع الفكرة الرئيسة المحذدة للوجود. يعسوب الهواجس ينط من نشوة مقزمة إلى نشوة مقلمة، بين المشاهد المتنافرة، ونحن نجتاز درج الطائرة. المضيفة الجميلة تبتسم عنوة، تشكر الكل على نجاح الرحلة، كأنها تدرك أننا على أبواب رحلة أخرى على الأرض هذه المزة. دوافع البحث بين الوجوه تحزك اندفاعات الكل نحو الباب للقاء ما تبقى منا داخل الوطن. البوليس والديوانة، الشرارة الأولى على انغماس البلد في صحن تنامي الفكرة الأمنية. عيون نافرة، متأهبة، وعيون أخرى مهطعة، تتجلب لعنة الإصرار والأسئلة المستفزة. يتطلّع إلي الشرطي بعيني قط شرس، يرى فأراً عن بُعد، يمطرني بوابل الأسئلة الساذجة: عن المهنة؟ عن العمر؟ عن العمل؟ سبب الزيارة؟

كان كل شيء واضحاً في جواز السفر، يعمد إلى زعزعة يقينك، وتكسير ذلك الإيمان المزعوم بالخزنة في أوروبا، يختم تاريخ الدخول، ويقول بصوت أخن متعب من فرط تدخين التبغ الأسود، ممرراً يده على موسطاشه الشوكي:

ـــ على سلامتك.. الدزاير لا ترغب إلا في الرجال.

أتسلّل من حالة التدويل الرابضة بالمطارات إلى تراب سيد الخير(

شايل الله الوالي، طامعين في حماك أسيد الخير، شايل الله رجال البلاد).
المطارات غوايات منكسرة على حافة الرحيل. أتسلّل من باب الخروج متلفّفاً أول طاكسي. السائق يأخذ حقيبتي بنوع من العنف، يوحي بالاهتمام المبالغ فيه، يغرسها في ضبر السيارة، يبدو أنه امتهن الفلاحة قبل أن يصبح سائقاً. كان بالي ما يزال مشدوداً إلى سان سيباستيان، يتهيأ لي صخب بحره مندفعاً إلى أذني. السائق ينظر إلى المرآة بعد أن مذ عنقه، متظاهراً بمعرفة حقيقة أوروبا، ومعاناة العرب من جحيم العنصرية، يفتح فاه بابتسامة، ويردف:

ـــ قطران بلادي، ولا عسل البلدان.

أومأتُ برأسي مؤكداً صحة طرحه السخيف. آثرتُ أن ألوذ بصمت عميق ساداً أجفاني، أرغب في أن أتمتع بموسيقى المدينة دون الحاجة إلى أصوات أدواتها البشرية: سطيف بدون سروال. سطيف العارية، الموحشة كما هو حال تمثال المرأة الخالدة العارية بعين الفوارة. سطيف المعششة والمعششة في عقول السطفيين منذ الأزل. السائق يكحكح، ليبدد جلال الصمت، يصدر تنهيدة بغية الزج بي في أتون التماسات التعاطف والحسرة والمواساة، ينزل بحاجبة الشمس الصغيرة اللاصقة على الجانب الفوقي من الزجاج الأمامي محدثاً صوتاً تصطك معه الأسنان، حتى يتجنب مخالب الشمس الخادشة والمتسلّلة من الزجاج، ينضح غبار خفيف من معطفه البني الحائل، يجري صوب الأشقة مشكلاً خطاً صوب قلبه، كأن قلبه لا يدق إلا على إيقاع هذا الخط:

ـــ خويا بلادك.. بلادك، واخا يكون ماها مهماج.. لايبرد نار جنك سوى ما بلادك.. خليني عليك، راني نركب الألوفات من الراجعين من الخارج، راهم يأكدو كلام.... مي.

ما كاد يُكمل كلامه حتى أشار له بوليس المرور بإشارة رتيبة. كان خط الشمس قد تبذد عن موضع القلب. عيون البوليس مدزبة، تلمع داخل الطاكسي، تمسحه في بضع ثوان. يرسم شبح ابتسامة على شدقيه، يشسع فمه كسمك البوري منحنياً على الباب هامساً:

ـــ الطبل هو من يأكل وحده، عزيزي الروبيو.

كوّم الروبيو يده في جيبه باحثاً بأصابعه، يهبط بمؤخرة عينه، مائلة على جيبه، يمد يده في خفة متصنعاً ضحكة ساذجة:

ـــ زهرك أزهرة.

ضغط على دواسة السرعة لاعناً الدزاير، الأحياء والأموات والشجر والحجر، ويلوم بوضياف على عودته إلى الجزائر، ليقود شعباً من البغال، يلتفتُ إلي جانباً هذه المرّة:

ـــ والله خويا، بوضياف راجل مزيان غادي يوسخ تاريخو ويديه مع القوم اللي يعبد الدينار. البترول هو سباب خلاها.

يفتح زجاج الباب مشيراً بيده، ويصيح بأعلى صوته:

الله يكون في عونك، يا خويا محمد.

تفل بعد أن جمع أنفاسه، ومدّ يده على زرّ المذياع، تمز أصوات مخنوقة، تستفز الموجة على أغنية الحاج محمد العنقا:

الحمام الي والفتو مشى عليا

ما بقا لي نسمع صوتو في اغصاني

صار هارب عني مادار لي مزية

بعد ماكان صديقي يحوم على خيامي

كلا مكوي في حياتو مية كية

كل شي مجرب التحقيق في كلامي.

الروبيو يدندن تبعاً للحمام اللي والفتو، ناقراً بأظافر أصابعه على لوحة المقود بأقصى سرعة، كسرعة راقصات الفلامنكو. النقر لم يترك مجالاً لعيني، قاتلاً رغبتي في الانكباب المتلاحق على رصد الامتدادات الإسمنتية، والبدونة المستشرية التي لحقت سطيف العالية، مكتسراً بذلك التأمل الداخلي الذي سرعان ما سينتعش برؤية رأس تمثال المرأة العارية على حذ الهامات، فتترادف الأبخرة الملعلعة، محزكة داخلي الحيوان الذي تقوده المنبهات. أشير إلى الروبيو أن يملصني عند أقرب أوطيل، كما تملص الدجاجة بيضتها على حين غفلة منها. تصلني قهقهته الصاخبة البدوية الملفوفة بكلام خارج من الشفاه فقط:

ـــ وليدات الدجاج.

٢٣) عقد تفاعل ساذج

بايون لم تخرج بعد من وحشتها الباردة المثقلة من فرط الرذاذ القذر، تبدو كامرأة فقدت بعلها بسبب غير واضح، فتلازم سكون الوحدة، وتنكمش طلبا لدفء محتمل، لكن تشيشيلي على العكس، عزمت على أن تخرج من عزلتها بالأحرى من تلك الرغبة المتناثرة بحمم الذكريات، مسرفة في زيارة بايون حالما سمعت عن فكرة البعث، تنزاح الكرمشة الرابضة بين عينيها إلى إشراقات واستجابات، ترتب الشكل، وتموقع الذات ضمن النسق النفسي الباعث على استعداد مبهم، كمن ينتظر بشوق رسائل ساعي البريد، أو كأن الإنسان يملك قدرة هائلة على ادخار بعض العوائد النفسية الاحتياطية لساعة الترقب القصوى التي تنسل من غرف التحنيط. تدعوني إلى بار فرنسوا خلسة، لتحيط بفكرة البعث دون إثارة شكوك ابنتها مونيكا، أنساق لهذه اللعبة بشيء من التعاقد الساذج، ليس بفعل الغباء، بل كحكاية طفولية تعتمد على الإيماءات من عيونها المثقلة بخط كحل رفيع، تفتحهما في وداعة، أومئ برأسي مؤكداً حرصي الشديد على هذا العقد الساذج، فأقول:

ـــ إن العمر كفيل بأن يدعونا لحيوات جديدة، احميدة كلما شرب من ينبوع الأيام زادته بسطة في الجمال والوقار كأولئك الحكماء. هذا الرجل لم يتل منه الشرق أو الغرب، إنه أيقونة مستقلة بذاتها، أو لوحة خارج إطار المدارس والتوجيهات الفنية المعلومة.

تشيشيلي تمسح بمقدمة أصبعها، بل تسوي البودرة القرمزية على خديها. كان علي أن أملك خيال شاعر صوب لحظة قريبة المأخذ، أتمادى في تجسيد فكرة البعث عفوياً دون تصنع، منوهاً بها هذه المرة خارج الأيقونات والمدارس التوجيهات الفنية، ارتأيت أن أحول تفاعلي الساذج صوب لبس الضبيعة، أرتشف كأس قهوتي بصخب:

ـــ الأسد كلما زادت شجاعته زادت لبدته. الأسد حيوان أليف من ناحية الشكل، يمكن أن نسميه أحياناً الحمل الوديع. الشراسة نزوة داخلية، لا يمكن استخدامها إلا في حالة ردود الأفعال.

هكذا أردفت، وأنا أنظر إلى طاس القهوة ملوحاً ببالها إلى هيئة احميدة بشعره الطويل، ترتسم على وجهها ابتسامة عذبة، فتنفتح أساريرها كوردة عطشى، تحتاج إلى الندى فقط، يصبح للندى معنى الاستعارات والتشبيهات داخل بنية التفاعل الساذج، والهروب من الهيمنة للمعطيات الجاهزة، بتطبيق أعراف النظريات القسرية المعيقة للتصريح بالكشف عن فكرة البعث الصغيرة داخل فكرة البعث الكبيرة، ويصبح للذكرى طعم مز، وتعود الكرمشة بين الحواجب، سأبادر إلى إشعال فتيل التفاعل الساذج بتفعيل الروائح هذه المزة، حتى أخفف من حدة الكرمشة، وأحوّل وجهة الذكرى إلى استحضار رائحته في انجذاب نفسي، تشتعل فيه كل الكيميائيات البيولوجية لرصدها، أطأطئ رأسي، ثم أعيد رفعه في صمت، يجسد طبيعة قتل الرغبة، أو استخدامها بعد أن أهزّ كتفي على وشك أن أتحدث أو أتحزك، يتناهى إلينا صوت العجلات، وهي تعبر عن احتكاكها المباشر بالزخات، تشيشيلي ترفع بصرها مائلة بأذنها، فأقول بوداعة طفل، يحاور جدته:

ـــ لا أعتقد أنني سأنسى الرائحة الفطرية للطفل الرضيع، كلّما وضعتُ رأسي على رأسه، تغزوني رائحة الملائكة، رائحة الكون قبل أن يقتل قابيل هابيل، رائحة البعث حين تشكّلت الشمس في يومها الأول، لن أنسى رائحته حين عانقته بـ: Saint jean pied de port.

تشيشيلي تحك أنفها دون شعور، أعلم أن المنبهات الكيميائية تنهش أنفها بإغراءاتها الاستفزازية، تبسط أنفها إلى فوق، وتُغمض عينيها موسعة جيوب أنفها قدر الإمكان، فتبددت تلك الكرمشة، وانسابت الاستعارات والتشبيهات تملأ خفة اللحظة، خفة التماهي مع لعبة الإغواء في استسلام تام. أخفي ضحكة مجلجلة، منساقاً لتحوير اللحظة وتنميق طريقها بسفالة مبطنة، كنتُ أنوي أن أثير غيظها عن شغف السيدة ديدي هي الأخرى بفكرة البعث. عدلتُ عن ذلك، حتى لا ينفلت من يدي حبل اللجام، وتتبدد تلك الفرحة المستعارة من خضم عقد التفاعل الساذج، المبروم بحركات وإيماءات منثورة بين القينة والأخرى. مساحة الحجب تزداد، ويزيد معها ضيق الخناق على معرفة مونيكا بهذه الزيارات المتتالية لتشيشيلي صوب بايون، وتقفي طريق البعث عن كثب. كانت ترقب لحظة حلم على وشك أن يتحقق كأميرة من أميرات العصور الوسطى بوجهها العصبي، وهي تطل من شرفة القصر.

رائحة مطبخ بار فرنسوا يسيل معها اللعاب، تدعونا إلى نهاية عقد

التفاعل الساذج. تشيشيلي ترغب في العودة، وتحضير طبقها المفضل:
. Poule au pot

٢٤) قميص أبيض بروائح آسيوية

ثقة ثقل يجثم علي من خلال الانغماس في مشوار المواضعات الرتيبة. حواسي تعاني من فوضى مخبولة، مغلولة كسجين لم يصرح بعد بحقيقة طرحه السياسي وميولاته الإيديولوجية. سيكون هذا الأحد منسلخاً عن جلد الأيام، لم يذعن للتوصيات المعمول بها؛ فسحة كرينكا الصباحية كالعادة، وانتظار طاطا مارتين. أمشي على جادة نهر لادور، والزخات تنقر وجهي بوداعة، أحوم بوجهي صوبها، كنتُ متدثراً بالمعطف الأسود المشفع. أفتح فمي ألعق ما ساح منها على جانبه، كما كنتُ أفعل في طفولتي الناعمة، حينها تسلّلتْ ترنيمات بأغنيات تلاشت وسط كهولة تالفة، وسط متاهات أرصفة أوروبا الباردة، تعاودني نوبة النقص في مادة السيروتونين، أبالغ في الشراب عوض أخذ حبة السيروبليكس الصباحية. أقفل عيني في وجه الزخات، طفولتي تتراءى ضاجة ومعجونة من التراب الأسود الرابض على بيتنا. كان الجسد الناعم يزقو، يتكور تبعاً للفصول في نشوة الألعاب الموسمية، وصيد الطيور والعقارب على حدّ سواء، قد تؤكد طبيبتي مونيكا حالتي بمعيار هذا الازدواج الملفوف بتربية غير سوية، متمغنة في التراب الأسود الذي يملص طفولة مشاكسة ومفبونة في الوقت نفسه عبر مخاضات تنكت على الأرض رؤوسنا الشريرة. أفتح عيني، خدر لذيذ يدبّ إلى أوصالي كنصف متعة. القطرات تحبو على وجهي، تحبو معها ذكريات التراب الأسود، أهمس بلساني ملتقطاً مذاقهما معاً. رجلاي تقودانني إلى المدينة الصناعية الصغيرة "بوكو"، لأستروح رائحة بلدتي عندما أعانق محفد حسّوني، بالي طيلة يوم أمس يتمركز حوله كمكينة أرقام، بها عطب، لا تستقرّ إلا على رقم واحد. صوت المقرئ بغلة رخيمة يتناهى إلى سمعي من النافذة المفتوحة على الفاصل بين الفردتين، وأنا أهمّ بالضغط على زرّ الأنترفون. أسدل لحيته بما فيه الكفاية، يعانقني بعد أن أدخلني جانباً رابتاً على كتفي بطبطبات بيده على ظهري، قميصه يشقشق بالبياض، مضمخاً بتلك الروائح المقرونة بالإيمان ودواعي الافتتان والشوق إلى جنة الخلد، روائح قوية بالمسك والبخور، بذت معها رائحة بلدتي، وتضمخت بروائح آسيوية نفّاذة، في يده عود رفيق طويل بحجم المسطرة، يشكّل مسواكاً، يلطم به فمه بين الفينة

والأخرى، في صعود وهبوط على الأسنان، انتظر أن يتم سلامه بالرابعة كالمعتاد، تراجع إلى الخلف بعد أن ملأ وجهه بابتسامة لطيفة:

ـــ إن الله وتر، يحب الوتر.

أحاول أن أجزه إلى جو الدعابة، فأهاهن:

ـــ حتى مع الزوجات يجب أن نُوتر؟

كعادته يشير بحركة صامتة من يده. البيت استكان هو الآخر للتبعات الآسيوية، تبددت رائحة رطوبته وزنخه وفوضى ملابسه، تجمل وجهه بطلاء أبيض مشوب بصفرة خفيفة. اللوحة الوحيدة لجان دارك المنقشعة برائحة المرأة، ليس لها أثر، عوضتها بعض اللوحات المختومة بآيات من القرآن، وبعض الأدعية اللاصقة على ظهر الحائط، أقول له:

ـــ وأين غابت زوجتك؟

فتح عينيه قدر الإمكان كفن تلقى صفعة على حين غرة:

ـــ عن أي زوجة تتحدث؟! زوجتي ماتت منذ مدة، وأنت تعلم أنني غير متزوج.

ألف برأسي متصنعاً البحث في أركان البيت:

ـــ أقصد لوحة جان دارك.

يبدي بعض الامتعاض الخفيف جامعاً بخطوط جبهته البارزة المدعوكة بخطوط التعب:

ـــ البيت الذي به التصاوير والتماثيل والكلاب، والذي لا يدخله الضيف، لا تدخله الملائكة.

هكذا يقول وهو يلف بزر بوطاغاز قادحاً الولاعة لتحضير الشاي. استحضرتْ حينها كرينكا المسكين، سيشرع في عوائه في الحادية عشر إلا خمس دقائق، وسيختمه بأنين لطيف قانعاً بمصيره، مادام الإنسان هو من يحدد مصير الصور، التماثيل، الكلاب، والضيف. المقرئ لا يزال يصدح بتراتيله، أحس بها منعشة في الوقت الذي ساد صمت مفاجئ بيني وبين محفد حشوني. تتداخل شرشرات الشاي المقلوب في الكؤوس، فيسطع نفسه إلى خياشمي، على الأقل، سنظفر برائحة الشاي، حتى لا ينقطع حبل رائحة بلدتي إلى الأبد. يجلس بعد أن وضع الصينية على المائدة المربعة

القريبة إلى الأرض، سرواله الأبيض القصير يتضح فوق ساقه المملوءة بشعر ملولب كثيف. كنتُ أختم مع المقرئ أواخر الآيات. بعض ما فضل من حفظ متلاش، أعلم أن وراء عبارة جنات، فأسرع وأقول: تجري من تحتها الأنهار، أو إن الله شديد: العقاب. أو سريع: الحساب. يفتح عينيه الواسعتين كعادته، كمنبه للإحاطة بمعلومة مهمة ومشيراً بسبابته صوب الصوت:

ـــ إنه مقرئ وإمام وخطيب الحرم. سبحان الله، هذا الرجل يسقي سعود الشرم، له غنة كأصوات الملائكة.

لم أستطع أن أؤكد أو أنفي كلامه، فأنا لا أعرف سوى عبد الباسط عبد الصمد وعبد الرحمان بن موسى. يمد الكأس بعد أن يسعل، كأنه يذكرني حتى لا يشرب معي إبليس اللعين الشاي. يضع الكأس من يده، تتناهى إلي طقطقة الكأس على الصينية، كانت كإشارة طرق باب الحديث وفتحه صوب موضوع معين، وجهة نظر معينة، قناعة معينة. يداهمني خاطر يقول: اختبرْ الانسلاخ من عوائد الأحد، من مواضعات الأجندة الرتيبة، اعقلها وتوكّل. تتسلّل إلي الرائحة الآسيوية، يحك أنفه برهافة:

ـــ لم أعد أزور الطبيبة مونيكا رغم مهاتفتها، شفيتُ، بإذن الله عزّ وجلّ من تلك الهواجس والوساوس. إنه إبليس، لعنه الله، حالما يتلبس الإنسان، يجده لقمة سائغة. لم أرغب في أن أقول لك: إن الطب النفسي حالة رتيبة، حالة خلقها العالم، ليبعدنا عن أرواحنا، فلكثر من بلع الأقراص والقطرات المخدرة للنسيان، فسقط حتماً في ما هو أشد، أقصد الإدمان بطريقة أو أخرى.

حديث محفد حسوني أيقظ بعض الاستجلاءات كقذائف تنقشع قرب الهدف، وتنقشع معها الحمم التي تحفّز الرغبة أكثر في الكشف عن طبيعة الهدف. حقيقة لم أعد أهتم بملفات المرضى، لم أعد أهتم بمونيكا بما فيه الكفاية، أو العكس هو الوارد. منذ ظهور فكرة البعث تلاشت تلك الرغبة المحمومة على الملفات المبثوثة فوق المكتب المرتبة من الألف للياء. لم تعد تلبي رغبتها بإسناد ظهرها على ملفات مرضاها. وهي تشابك بيديها على كتفي مطالبة بالغوص أكثر. طائر النورس يزعق من جديد، يلبي رغباته ورغباتنا في التذاذ هذه الفكرة الجميلة حول الامتناع عن الإيمان بالطب النفسي، والإحجام عن أخذ وصفاته. راقتني الفكرة كمن بحث في جيبه، ووجد ورقة مالية. لم تكن في الحسبان، وسرى فيه فرح كخفقة في

القلب، سيجلبه مشقة السفر إلى علبة الحليب اليومي والخبزة المدورة. فكرة الامتناع فقط بدون الغوص في تبني الحلول التي تحد من الرؤية، وتزج بنا في أتون الهزات الجديدة البعيدة عن توافقنا الأول. يشير بحركة صامتة بعد أن قلب بإبهامه صوب الأسفل، أقول له:

ـــ شكراً، كثرة الشاي تؤرق المعدة.

مع ذلك، لم نتمكن من تحديد طبيعة الموقف، أو توجيه الحديث، كأن الصدفة هي من تكلّفت بربط الجسر العفوي، فنبادر إلى الاختفاء وراء العموميات، ونخشى من الاختلاف، سأجس نبضه بالطريقة نفسها ملفوفاً بسؤال عام، فأقول مثلاً:

ـــ ما الحلّ؟

النافذة اندفعت مفتوحة بقوة من شذة التيار في الخارج، غطت ظلمة باردة، سبقها هزيم رعد فدوّ.. يقفل سذادة النافذة داعياً:

ـــ سبحان الذي يُسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته.

يُسوي القميص الأبيض بعد أن جزه من وسط مؤخرته، متراجعاً إلى الوراء، فدمدماً كأنه يخاطب نفسه:

ـــ ما الحلّ؟ ما الحلّ؟

النسمة الباردة توسعت تحت أرجلنا، يفطن لجهاز التسخين مستخدماً درجة حرارته في العشرين درجة. يمسد لحيته المدهونة:

ـــ الحلّ، يا عزيزي حمامو، يكمن، بكل بساطة، في التقوى.

لم تُثرني لكنة محفد حسّوني في البداية المرصوفة في أغلبها بلغة عربية فصحى، كنتُ أرجن الأمر إلى شوقه إلى نقاشات الجامعة وقسم الفلسفة. أحس بها الآن لغة دعوية موغلة في تبني الأحكام وتحديد المعاملات. كلمة التقوى أستشعرها دائماً كلمة مؤلمة، كبناء لم يسعفه الأجر والإسمنت في بناء حائط على الوجه الأكمل. البناء يرتقب دائماً مراقبة لجنة، تُقوّم هذا البناء، فتكون المدة الزمنية في انتظار الزد مدة ممعنة في لعنة العقاب بهدم الحائط.

ـــ التقوى ها هنا.. التقوى ها هنا.

مشيراً إلى موضع القلب.

أنعمتُ النظر ملياً في محقد حشوني كأن جثاً ركبه. الفقاعات تخرج على جانب فمه، محاولة إقناع محمومة لجز كافر إلى الإسلام، فيتمادى في ذِكر عواقب تارك الصلاة، مشيراً بسبابته في وعيد مبتذل. ضحكة مجلجلة تتلبسني كما يتلبس إبليس الإنسان كما يقول محقد حشوني. ضحكة منسكبة من فكرة تبدو شاذة، لكنها نابعة من ذلك التقابل القلق، لم أكن أخال في يوم من الأيام أن كارل ماركس سيتحول إلى فقيه متزمت. المسواك يصعد ويهبط في مسار مرغم يؤكد تلك الاندفاعات الدعوية المشحونة على الوجه الأكمل، وملء خانات الخلاص بعيداً عن لبس الأسئلة الميتافيزيقية القلقة، والطروحات الأنتولوجية. يهدهد صدره بسعال خفيف:

ـــ اسمع، يا حمامو، أوّل ما يُحاسب عنه المرء غداً يوم القيامة: الصلاة، فإن صلحت، صلح سائر عمله، وإن فسدت، فسد سائر عمله، والعياذ بالله. وما بين المرء والكفر ترك الصلاة.

أشرتُ بإبهامي المقلوب إلى الأسفل مثل إشارته الصامتة. شرشرات الشاي يصل دبيبها إلى أذني مغطية على صوت المقرئ، وعلى صوت الوصايا والالتزامات والانقيادات. لم أودّ أن أفسد على محقد حشوني لحظة الدعوة، وهو يتخيل نفسه على المنبر خاطباً في الناس المنبهرين المتماوجين برؤوسهم استحساناً وتزلّفاً إلى الخطيب، الذي يُقرّب من الجنة، ويُبعد عن النار، فتسمو المعاشرة الروحية الصافية، متخلّصة من كل ما هو أسود من حقد وضغائن. كنتُ أنوي أن أقول له:

ـــ مشكلة المسلمين أنهم اهتموا بالأحكام فقط، وتجاهلوا قيم التسامح والجمال، التي كان يشخصها النبي (ص) في حديثه وسلوكه، ماذا كان سيصيب المسلمين عندما سيقرؤون رسالة النبي(ص) إلى المقوقس، أو نشوة الأحباش داخل المسجد، وهم يرقصون بسيوفهم في استعراضات، تليق بأجواء إفريقيا المحمومة؟! ألم يقل النبي(ص): لكل قوم رؤيته. ماذا عن ردّ النبي (ص) حين سمع أبو بكر ضرب الدف في بيته، وقال: "أمزمور الشيطان في بيت رسول الله؟!" وماذا عن حديث حنظلة حين أتى متجهماً، كأن الطير على رأسه، وقال للنبي (ص): "نافق حنظلة؟". وأجابه النبي(ص): ساعة فساعة، يا حنظلة. آلاف الرؤوس تُقطع باسم الإسلام، وتُراق الدماء بين اللحى والعمائم منذ الفتنة الكبرى إلى يومنا هذا، بالفعل إننا خير أمة أخرجت للناس. ماذا عن اليهودي المحمول في نعشه، وامتناع الصحابة عن الوقوف إجلالا للميت بدعوى يهوديته، فقال النبي (ص): أو

ليست نفساً؟!. ماذا عن عائشة وهو يقول عنها: خذوا عني من تلك الحميرة؟ ماذا عن تعلّم اللغات حين قال من تعلّم لسان قوم أمن شرهم، فتعلّم بعض الصحابة العبرية في خمسة عشرة يوماً، والسريانية في عشرين يوماً؟! "العهدة التي بيننا وبينهم الصلاة، ومن تركها،فقد كفر". لم يعلم محمد حسنوني أن الحديث ينطبق على الذي لم يسجد لله قط. لم يعلم أن الإسلام لم يُغلق باب الاجتهاد، وغذه أصلاً من أصول التشريع، بعيداً عن تلك الفتاوي المؤدلجة، أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار، كان النبي يعلم بصعوبة إيصال الفرع بالأصل.

وجدتُ نفسي أمشي على جادة لادور. أميل بوجهي صوب الزخات تنقرني بفرح فطري. كنتُ أحسّ أن الله راض عني من السماء السابعة، يباهي بي الملائكة، لأن قلبي يخفق بالاعتقادات الخفية في رسائل خاصة بيننا بعيدة عن حكم السلوك. رسائل تخفي العديد من التطلّعات إلى البحث أكثر عن ماهيتي في غربلة العالم والأشياء بعيداً عن من يقولون: إنهم سفراء الله.

٢٥) احميدة السطيفي (الباب الثاني)

الليلة الأولى كانت جحيماً لا يطاق، مثقلة بكوابيس رهيبة. المرحوم والدي ببرنسه الأشخم وسط عاصفة هوجاء. تلافيف برنسه لا تستقر، تلف عليه، يصارع بما فيه الكفاية، غير راض عني، يتوعدني بإشارات ميمية محزكاً شدقيه حسرة، يتوعدني بدفع الثمن غالياً، يلومني على عودتي. المرحومة والدتي فاطمة تقف بجانبه، تشرع في لطم خديها كشفل النائحات في موت عزيز. أقوم جافّ الحلق، خافق القلب، بفزق غزير ينهمر مني كالمحموم. أعبّ قارورة ماء بأكملها كشرب البعير. مؤذن الجامع يلعلع بأمداح رخيمة، تذكر بالشوق إلى لقاء الله وحبيبه المصطفى(ص)، ممهداً لفجر قريب، يخبو معها بعض لهاثي واهتزازي. تمثال المرأة العارية يناشد هو الآخر سطوة الوحدة، تبدو المرأة العارية مثقلة بجحيم الأسئلة، منجذبة للصوت الرخيم، كأنها تداري خطيئة، أقيمت بسببها، وهي ترقب الجامع في تقابل عجيب منذ قرن تقريباً. أنسلّ تيار قوي، حزك معه حاشية ستائر النافذة مخلّفاً نصلاً حاداً من البرودة، يمرق إلى الكتف. أقفلتُ النافذة، وبي رغبة ملحاحة في إشعال سيجارتي الأولى، عادة ما أمجها بعد الفطور. أهادن الوقت في انتظار شروق الشمس، ليصل الروبيو. الآن يصل صوت الآذان إلى سمعي صافياً: "الصلاة خير من النوم". انمحت كل الأفكار المشوشة، وشرعتُ في البكاء دون سبب، استحضرتُ كل خيباتي والامي.

إحساس بما هو متير من تقلّبات، عرفتها حياتي منذ خروجي اليوم الأول. انغمار الثاوي فينا الذي لم تُسعفه الأيام على النسيان، مهدهداً زوايا النفس المظلمة؛ استحضرت مونيكا ابنتي في سن الشباب الأول. أنسلّ إلى الأسفل على مقدمة قدمي. المكلّف بالفندق يغط في نوم عميق، يحزك ردفه تحت الغطاء حالما نقرتُ زز الكهرباء. كانت صلاتي الأولى في الجامع فرحة لا تعادلها فرحة، صلاة مقرونة بأحاسيس كفن على وشك أن يشفى من مرض عضال. ساحة عين الفوارة شرعت تغسل وجهها خيوط النور مبتلعة خيوط السواد بارتفاع الأصوات والمجادلات، وقعقعة الأبواب الحديدية، لتستقبل وجه سطيف. صاحب المقهى لم يتخلّص بعد من رغبة

النوم، تخطفه عيناه بعض المزات في سنة خابطاً برأسه على جانب الكونتوار، فيفتح عينيه في غفلة، كأنه تعرض للدغة، يصوب بهما جهتي، ويقول:

ـــ النوم أخ الموت، والعمل اللعين لا يُريحنا منه سوى الموت، ساعتها سننام حدّ الإسراف.

كركر بضحكة مدوية نكاية في الموت، أو في حالة السنة التي خطفت عينيه. طلبتُ قهوة ثانية، أقتل بها البياض والخواء. الشمس ترسل أشعتها الدافئة صوبي، أحس كمقرور يرغب في أن يصرخ للعالم أن الشمس هي من جعلت لحياتنا مغزى. الروبيو يتطلّع بعينيه صوب الفندق بسيارة مخالفة، سيارة مرسيدس ٢٤٠ الصبورة التي لا تتحرج في أن تعبر كل الطُرق والمسالك والوهاد. أرفع له يدي، يفتح ذراعيه في وجه الشمس متثائباً محدثاً قرقعة لعظامه، يطرد بها تبعات كسل النوم كالبغل، فيردف:

ـــ بالله، يا حنيني عيط لينا على فطور زين وراس سيد الخير يالا الخارج خرج عليكم وقتل فيكم الروح والجيب والنخوة.

النادل يمازح الروبيو بعد أن لكزه تحت إبطه صائحاً:

ـــ فيه العسل.. فيه العسل.

تظاهر الروبيو بالتقزز من كلمة العسل، ويمسح على رأسي كفعل الطلاء:

ـــ فيه الخراء.. فيه الخراء.

تعالى ضحك الجميع، تفرز ضحكة صاحب الكونتوار الصاخبة الخارجة من كرش مملوء بالطعام.

سيارة المرسيدس ٢٤٠ تطوح بدخانها صوب السماء. الروبيو يصب المزيد من الماء في قلب جوافة التبريد، أرفع عيني، أقرأ دعاء السفر على صفيحة بلاستيكية، تحفها خيوط مذهبة. الأزهار والنوار المتفتح على جنبات الطريق، يفتح شهية الحياة في هذا الصباح المثقل بهواجس مبهمة، يزفر الروبيو ممدداً بصره نحو الأفق اللامتناهي، ثم يعود، ليتلقفني بنظرة جانبية كمن يفهم جيداً أسرار الحياة:

ـــ كل الأثداء تفتحت، يا عم، ترغب في من يمرر يده عليها، كل شيء يرغب في الالتصاق كالكلاب.

كان حمار يمتطي حمارة، يرغب في أن يدخل شيئه في فتحتها متسرعاً يلطم قرب الفتحة فقط بعد حين يدرك الباب. الروبيو يزأر بضحكة صاخبة:

ـــ هذا ما قلناه، يا عم.. الحمير هي الأخرى تتعاشق.. كل الفروج تُزهر في الربيع.. أوف، نسيت أنك قادم من بلاد النصارى، أسمع أنهن لا يكدن مفارقة الرجل حتى تزهق روحه.

أجيبه في تبزم حتى أثير نعرته مململاً رأسي:

ـــ لا علم لي.

زاد من سرعة السيارة. دخانها تصاعد من جديد:

ـــ الله يعطي الفول للذي لا يملك أضراساً، ما معنى أن تكون في الجنة، ولا تقرب حور العين، والله إنك تستأهل الجحيم ورأس سيد الخير. يتأفف مغيراً موجة الراديو، لم يسعفه برنامج الوقاية من حوادث السير، يسب مقدم البرنامج سباً لاذعاً على إحصاءاته الكاذبة، بسبب تهور السائقين والسرعة المفرطة التي تؤدي سنوياً إلى حصاد وقتل العديد من الأبرياء، يفوق عدد القتلى في حرب أهلية. يدندن برأسه مطبطباً ببطن يده على وسط المقود تبعاً لأغنية أحد شباب الراي:

سيدي يومدين جيتك زاير

أجيبني ياسيد في منامي نبرا

ياسيد لحراش ياشايع يا بولشعر

ياشايع يابولشعر بخديمك دير مزية.

يطلب سيجارة، أرمي له بالعلبة كاملة بعد أن سحبت منها واحدة، يتشفم العلبة، ويلقي لطابا الشقراء:

إيلا كان السعد فلجر من عود

نجر ستين عود من غير عودي

إيلا كان السعد منك يا مسعود

سكم لي سعدي.

اختلط مواله بصوت الشاب، يستوي ضجيجاً منظماً، أقرب الولاعة من وجهه، يمج مجتين، يجمع بأساريره، ويُصدر تنهيدة طويلة:

ـــ الله يرحمك، يا فا، يومها قلت لي: السخط أو الرضا إذا تركت الوطن.. على الأقل كنت سأنعم بطايا الشقراء، وأنكح ما طاب من الشقروات، والله، يا عم، الله يعطي الفول للذي لا يملك أضراساً.

بيتنا الوشيك يتراءى بهياً مصبوغاً بالأبيض الناصع، أجد أخي بوشتة جالساً رفقة سي إدريس صديق طفولتي؛ إمام وخطيب الجامع الكبير، اختار هو أن يشرق، ليكمل تعليمه بالزيتونة، وأنا اخترت أن أغرب، حالة من الدهشة تلفنا كأننا خرافة تحف المكان. تزغرد بخزيّة زوجة بوشتة، ابنة عمي سعيد بصوتها السلسبيل الذي ما يزال عذباً رغم تصرم الأيام، الروبيو يرفع يده بعد أن دعا لي بطول العمر، بجاه الله والولي سيد الخير، لم يتوان بوشتة في أن أوكأ خروفاً، وذبحه قرب الترعة فرحاً بالدخول الأول للعائد من الغربة، أزور سيد الخير، ما تزال رائحته تشي بالزهد والبساطة، يسطع بنفس التمر والحناء المضفخة على أرجائه كلها، ورائحة الشمع المشتعلة في الطاقة على الدوام، لتبذد الظلّ إلى النور المقدس، وينقشع الثوب الأخضر الملفوف على ضريحه، أضع أنفي على ثوبه، أتشمم رائحة طفولتي تتلظى بين عصرين، الأيام الأولى كانت متعبة في التعرف على الوجوه والأحداث كلها، يذكرني بوشتة بمن مات، بمن تزوج، وخلّف، وبمن أصبح له شأن بعدما كان القمل يرتع على حواف ملابسه، وكم من عزيز قوم ذلّ بعد أن كان اسمه يهز قلوب الكل إبان الثورة، أروح قبلة وبحراً لإحياء صلة الرحم، حينها بدأتُ أتلمس الدفء المفقود على أرصفة أوروبا، أحشني كالعطار علال الحراشي وهو يجوب بحماره الأشهب الأعرج جبال مغرس مقايضاً الزبدة والبيض بالملح والسكّر والحلوى، لا يمكن أن أصف لكم الشحطة الأولى في تاريخ الجزائر التي تلقتها في يوم حار، وهم يرون محفد بوضياف يُقتل أمام أعينهم في نقل مباشر من عنابة، لم يقبل الكلّ هذه الوحشية المخطط لها من طرف العسكر، خاصة سطيف المدينة التي تربطها ببوضياف علاقة متينة منذ ترشحه الأول في انتخابات المجلس التأسيسي عقب الاستقلال بدائرتها، هكذا اتسعت رقعة الفوضى، والتي أجزم أنها بدأت بقرار المجلس الأعلى للانتخابات التشريعية، وحرمان جبهة الإنقاذ من ممارسة حقها الشرعي، قلت لكم في البداية إن الجزائر تتضفخ بعطور مستوردة، حينها شرع كابوس الليلة الأولى ينهشني من جديد، وتدزجت مصالح الساسة إلى نشر الرعب

والتذبيح والقتل باسم الله من جهة، وباسم الوطن من جهة ثانية.. بين الله والوطن ثقة حاسي الرمل وحاسي مسعود. كل يوم نستيقظ على المزيد من الهلع، تبعثرت الأوراق، وأصبح الكل يخزب ويقتل ويذبح باسم الآخر. قتلوا معظم المثقفين والفنانين وكل من فيه بذرة الاختلاف عن قطيع الضباع، وتحولت الجزائر إلى امرأة بشعة/غولة تقتات على أبنائها. كنت أرغب في العودة، فأعدل عن الفكرة في انتظار استشرافات، تغسل وجه الجزائر، وترقع ثوب الثورة المجيدة التي أخرجتنا من الاستعمار، وفي غضون ثلاثين سنة، اجتثنا الحلم من جذوره. لم أكن أصدق أن أيادي الغدر ستطال صديقي الإمام سي إدريس الرجل البسيط، وذبحه على شاكلة الجمل من رقبته. أقول لكم: من رقبته، من رقبته. أغمضتُ عيني ملياً، وأنا أحاول أن أستعيد وعيد الليلة الأولى، كان والدي والدتي على حق. دموعي تنهمر على وجهي كالحجر، لحظتها افترقت الروح عن الجسد، وماتت تلك المادة التي تشكلهما معاً، التي تُسقى الجزائر منساقة لعشريتها السوداء:

ماذا كان علي أن أفعل إذن؟

٢٦) اللوحة الكبرى أو فارس الظلّ الحزين

فروع أشجار التنوب تنفقها كريات حمراء وصفراء وأشرطة وردية، تكتسي بها وجهات المنازل والمحلات، ودبابيس بعيون غامزة تبشر بقرب حلول أعياد الميلاد. تلك الفرحة التي تسبق الأعياد مرئية الحواس باستعداد قبلي، نظراً لرتابة الشتاء المذنب، فالغرب يجعل أي خذث كيفما كانت طبيعته دعوة للاحتفالات وتكريم اللحظات. كان قدر المسيح على حق حين وُلد في هذا الشهر بالضبط، وجعل لحياة المسيحيين مغزى استحضاره. كنا نحن الخراف سنفترق، مونيكا ستقضي أعياد الميلاد رفقة والدها والشيخ البيروفي في الشيلي للتمتع بلهيب الصيف، وجمال الشريط الطويل الممتد على ساحل المحيط الهادي. أتظاهر بالمرض، وأخبر مونيكا أنه لا رغبة لي في السفر، وتحمل مشقة ثلاث عشرة ساعة في الطائرة. الحقيقة أنني كنتُ سأقضي أعياد الميلاد مع طاطا مارثين بمدريد، ترغب في أن نحتفل وحدنا بعيداً عن ضوضاء الفُذن المعلومة التي تُقزم هامش الخزنة... الأرجح، أصبحت أميل كل الميل إلى طاطا مارثين، وأسعد بالتعبير عن تلك الصيرورة المؤجلة داخل كينونتها، فتميل بعطف وحنو هامسة في أذني:

"حصاني الأسمر المجبول على العدو في الأوقات كلها، أتمنى أن أمتطيك هذه المزة إلى الأبد. صغيري العذب أتمنى أن أموت بين يديك، وأنا أرتشف لذاذات لعابك المصنوعة بسن، لا تخبره سوى النساء الحاذقات والعالمات بأمور الروح والجسد معاً. دعني، دعني، حصاني، أمتطيك إلى ما لانهاية".

طبعث على فمي قبلة، ليست قبلة الشهوة، قبلة توقظ الإنسانية الراكدة، فننام متداخلين في بعضنا، ممجّدين لحظة الغايات الأسمى والتطلّعات الأبهى إلى الحنين الجارف، واضعة ظهرها على صدري، فمسكة بيدي على صدرها، مستسلمين لنوم دافئ، يتمرجح على أجنحة الملائكة، منيرة ذلك الركن القصي من ذاتي، التي لم تستطع طبيبتي مونيكا زعزعته بالشكل المطلوب. يصلني صوت مونيكا متداخلاً مع نباح كرينكا وراء الزجاج:

ـــ لا تخف، سنوافيك بكل صغيرة وكبيرة، ونجعل نار الغيرة تأكل قلبك، غارزين سكاكين الندم في مهجتك على عدم السفر معنا. كان بإمكانك أن تعيش معنا اللحظات المباشرة، لكن كرهك المجاني للتكنولوجيا يمنعك من ذلك. ثمة عبودية خوف تلزمك وفق البنية النفسية، وهي عقدة معلومة عند العرب على وجه الخصوص، عقدة ترتبط دائماً ببلوغ قفة الشيء، أو الهروب والنفور منه، وشن حملات مضادة بكل وسائل الإقناع للنيل منه. بكل بساطة، إنها عقدة الاستكمال؛ عقدة يمكن التغاضي عنها بسرعة، من خلال مواجهة الخذث أو الشيء كيفما كانت طبيعته، والاستعداد لتقبل الخسارة والربح والتوافق أحياناً.

كرينكا يبدو متجذباً لخيط سري من الفرح، يقوده إلى سيارة طاطا مارثين، يُصدر نباحاً أليفاً مبصبصاً بذيله يميناً وشمالاً، حاسته الكلبية تؤشر له أنه سيدخل عالم النعيم مزة ثانية:

يا داخل الجنة، واسيدي،

عد لي وما فيها، الله، الله".

تذكرتُ المعاشي عند ما يزدد لازمته حالما نحصل على دعوة إلى عرس أو حفل بهيج. كنتُ أجيبه بعد أن أصفع صلعته اللامعة على الدوام: "لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

قرأتُ في إحدى المجلات الأمريكية أن عربون الحب الحقيقي يبدأ من طريقة فَتح باب السيارة، على الشخص السائق أن يتكرم بفتح الباب للمحبوب، ويقول بصوت لطيف فيه مناغاة:

ـــ اصعد، حبيبي أو حبيبتي.

والآخر كذلك مطالب بأن يتوكأ على مرفقه، ويفتح الباب، هذا ما فعلته طاطا التي كلّفت نفسها دورة على السيارة، لتؤكد حبها لي. لحظة نشوى تملكتني وأنا أغرس فمي في فم طاطا مارثين. كرينكا ينبح كعادته مطالباً بسماع عجلات السيارة، وهي تمضي نحو النعيم المرتقب، يراودني خاطر: "إنها حالة بروفا، لحب لم يؤمنه الزمان، حتى هذا الزمان غير قادر على ضمان الأمان لنفسه".

المسافة إلى مدريد تتطلّب خمس ساعات، عمدنا إلى تكسير الطريق بالاستراحة في بوركوس؛ مفترق الطرق بين الشمال والجنوب. نلج باراً

على حافة الطريق، تُديره نادلة فقة في الجمال، الإسبانيات جميلات وداعرات في الوقت نفسه. كأس الضحى الكلب، نشوة تصقل الملكات، وتزج بالمخ في حمام الانجذابات والتموقع داخل نسق الرؤية الخالية من الذكريات السافلة، فجيوش هذه النشوة كفيلة بأن تطرد هذه الجحافل المقيتة. أرفع كأسي في صحة طاطا مارتين والعالم. كرينكا يطلّ بطقمه من زجاج السيارة، أنفاسه الحازة تغطيه، لم نعد نرى سوى ظلّه يتحزك. أعشق الصخب الإسباني المنبعث من لغة مجبولة على اللغط والتعبير بكل جزء من الجسم. النادلة الجميلة بحسّها النسائي الموروث عن حواء تُدرك علاقتي بطاطا مارتين، تمرر لسانها على شفتيها بصورة مريعة، أقرب إلى لوحة إيروتيكية، للزج بك في سياقات الرغائب المتربصة، تفتل خصلات شعرها في رقّة الإغراءات الاستفزازية. تثير غيظ طاطا مارتين المتوقّظة لمثل هذه المناوشات بحسّ التجربة وامتدادات الزمن. تحدجها بنظرة جبارة مدمدمة بين شفتيها:

ـــ الإسبانيات أغلبهن عاهرات.

تدخّلتُ لأنهي هذه اللعبة السخيفة بين امرأتين غير جديرتين بتحقيق القدر الأكبر من الارتواء، أقبل طاطا قبلة محمومة. النادلة تُصدر تنهيدة كأنها تتكلّم، واضعة يدها على صدرها النافر، ندفع الحساب، ونترك وراءنا لوحة جميلة من تصفية حسابات أزلية بين النساء، لا تعلم قدرها سواهن، حسابات مغلّفة بأحابيل لا تنطلي حتى على الشيطان نفسه، أقول في نفسي: "كم من حضارة غربت وأفلت إلا هذه الحضارة النسائية الغائصة في التشفي المترذّل!".

طاطا مارتين لا تزال تُدمدم لاعنة قلّة ذوق النادلة. كرينكا يضع طقمه على أذني، كأنه سيهمس لي بسرّ. المطر ينقر زجاج السيارة كنقر طائر وديع، أتلذّذ حرارة السيارة، فتزداد معها بهجة السياقات النافذة إلى مزالق التأويل البشري داخل تلك التوليفات، التي صنعت البشرية قبل أن تغزوني في هذه اللحظة غير الواعية. صمت لذيذ يخيم على الأجواء، فلا أصوات سوى الصوت الخفيف للمحزك وهو ينزّ بحنان، ونقرات المطر الداخلة مع الماسحة في حرب إثبات الذات، وهي تمسح أثرها، الكل منهمك في الاستماع إلى موسيقى نفسه عابراً المجزّات المتدفّقة والمتدثرة بعدم البوحان، المركونة في بيوت كبيوت النحل، تطنّ في انغمار المنيهات القابعة داخل شعاب النفس. إن الإنسان تسكنه خلية نحل على الدوام، تشتغل ملياً في خضم التنقّلات، السفريات، العذابات، التوجسات،

واللحظات الهاربة من كيانات الوعي القسري، فلا نشوة نتجفل بها سوى التسامي، لتخطي حواجز هذه الألفاظ. طاطا تُصدر ترنيمة موحية بانتهاء مذة جلال الصمت. كرينكا يرغب في قضاء حاجته البيولوجية، يعود بسرعة كأنه فقد دفئه المعهود، يئن أنيناً لطيفاً، عيناه الدامعتان تؤكدان برودته. تفرر طاطا بأحمر الشفاه القاني على شفتيها، أعلم أننا على مشارف مدريد. النساء يقذمن قربان الدخول إلى الفئن بتمديد وجوههن وتنميقها استعداداً للقاء مرتقب، بتقديم صورة رائعة واستجلاء نيات خفية في إشغال حيز هام في اللوحة الكبرى التي تسمى مدريد.

ندخل قلب اللوحة الكبرى التي تسمى مدريد، لم أكن أعلم أن طاطا مارثين تملك شقة تطلّ على ساحة إسبانيا، تتداخل اللوحات، لتفرز اللوحة اللب، لوحة المباهاة حذ التقديس. يبدو تمثال دون كيخوطي دي لامانشا مشيراً بيده على صهوة حصانه القوي، وبجانبه الساذج الخفيف الدم سانشو بانسا يمتطي حماره الضخم المكلّف بحمل درع الحرب بغية الظفر بحكم إحدى الجزر. علامات البلّه مرسومة على وجهه المفلطح. عبر التاريخ نحتاج إلى هذه الزمرة، لكل زعيم ساذجه وبهلوله ومغلبه ومخلته، إن استدعى الأمر ذلك. كانت يد النخات لورينتو كويليه فاليرا ندية على هذا النحت منسجمة مع تطلّعات الإسبان حذ تقديس الأيقونات التي تبزر دلالات الدول ودلالات التاريخ، تحس أن دون كيخوطي ينوي أن يدخل إلى القصر الملكي بعد أن يجتاز حدائق ساباتيني، حدائق القُبل المنهارة والعشق المخبول. كرينكا يطلّ من نافذة البلكونة واجداً، يسيل لعابه، شذته اللوحة البانورامية التي تشكّل وجوده ووجودنا، سواء كنا زعماء أو بلهاء أو كلاباً أو حميراً. ألم يكن دون كيخوطي على حقّ في بلورة اللوحة الكبرى للخضوع للوحة الصغرى؟! أو بعبارة أدق بلورة القانون الأكبر للخضوع للقانون الأصغر بغية رصد التمفصلات، وتحويرها إلى تبعات، تمنح الحق الإنساني فتل حبال روحه الشخصية، وشذها بأوتاد، بمنأى عن الصيرورة المثقلة بالأوامر بعيداً عن/ونكاية في القانون الأكبر.

حفيف الريح يتلاعب بأغصان الأشجار. أشرب في صحة فارس الظلّ الحزين والرفيق البدين، مركزاً نظري على حماره، فكانت المسافة لها وقعها الخاص بينه وبين كرينكا. أعلم أنها بداية انسياقي للقانون الأصغر. بدايةُ لملمة أشلائي، وتوضيب طاقتها الحركية في الطواحين الهوائية لدى لامانشا. أخرج رامياً بنفسي، لأترع كؤوس النشوة ببارات مدريد، أخرج من خيالات فارس الظلّ الحزين، من القانون الأصغر إلى القانون الأكبر.

معطفي الأسود المشمع كفيل بالتصدي لبهجة السماء. طاطا مارتين مشغولة في ترتيب أجواء أعياد الميلاد بطريقتها الخاصة. تجد متعة إضافية في التعبير عن المرأة الملحاحة التي تسكنها. عندما تتخلص من إصرار خادمتها ماتيلدا. كرينكا فضل هو الآخر أن يرقب لت اللوحة من زجاج البلكونة ممتنعاً من خلال عدم استجابته حالما فتحت الباب.

تماثيل معظم ملوك وملكات إسبانيا في صف جانبي قبالة القصر ينظرون بعيون توحي بالتعرض لدسائس كثيرة ومناورات شتى. الخلود على الحجر يعرّف بالتاريخ أفضل من الكتب المركونة في المكتبات المنثورة بغبار التناسي وقتل الأمجاد. كل حضارة تقوم على أنقاض الحضارات السابقة، فتطمسها، وتُلبسها لبوس المهانات والإذلال.

قطعت الطريق، أجد نفسي وسط ساحة بويرطا دو صول. الزخات هدأت، فماجت الساحة وعاجت بدبيب أشبه بخيوط النمل. عيون الكل على سرفة لحظة مشاكسة. فرق استعراضية وموسيقية من مختلف دول العالم. يطالعك الجانب الكوزموبولينيه بوجوه تزيد من سعادة اللحظة. رقصات الفلامينكو تخب على القلب كأنها جيوش يوسف بن تاشفين، تستجدي ترتيب البيت وراء البحار. في غمرة النشوة يدب الصخب إلى أذني. أفتح عيني وأسدهما تبعاً للتناغم الخالد. الإسبانيات نزوة شرسة، تحرك الهمة، كأنك مقبل على فتح عظيم. أطيط أحذيتهن يمدد نياط القلب. أشرب، أشرب، فأنا ظامئ منذ قرون خلت، سأشرب شرب قوم فاتوا، حتى أستطيع القبض على اللحظة الهاربة، لحظة الانبهار والسيحان. أدخل باراً في ساحة كورت. بار هادئ، يغلب عليه طابع المظاهر والبروز والكلام الهامس. الموسيقى تنبعث هادئة مكرسة جلال المكان. تفتح النادلة عينيها، وهي تُثني على سمرتي العسلية، وعيني بلون البحور الموحشة، تخال أني أمريكو لاتيني، أتلفس لغتها ببعدها الحركي فقط، وأحلّها بلغتي الإسبانية الفقيرة فقر بئر مردومة. البار يقرب مقر البرلمان الإسباني، لعلّ أغلب قضايا الدولة تُناقش في هذا البار. المزات لذيذة جداً، فإسبانيا بلد المزات بدون منازع، أميل إلى الساخن منها فقط. أدندن تبعاً لنغمات رأسي الطنان، انفجرت لتوها من سيحان متوج بصخب محمود. أعود أدراجي إلى قلب دو الصول. الأماكن الصامتة لا تروق لي، كما لا تروق لي مجالسة الموتى، يتأوهون، يتنهدون كأن الطير على رؤوسهم. أفتح الورقة الصغيرة للنادلة الجميلة المهملسة بحروف التاء كقشدة تتمذقها في لذة. اسمها صونيا، لها خط فظيع للغاية. أضحك بصخب مائلاً بجسدي

في وداعة كوداعة الملائكة، محاولاً أن أجد تفسيراً لهذه الحالة. يزداد الصخب. عيون ترمقني كأنها تدرك بداية خبل وشيك، فمظهري لا يعكس هذا الخبل المزعوم، يعكس ذلك التكامل الذي تقتضيه لحظة غامرة عامرة بالسعادة الناتلة على السريرة، فيغيب دور العقل للحظات عن المعقولية المرصودة له، يستشف فرحته قبل منطقه. حيث إن البرزخ بين العقل والجنون يشرع أبوابه لاستقبال خلايا السعادة، ربما عاد هرمون السعادة للاشتغال بما فيه الكفاية، فتتحزك الذقون بابتسامات باردة، تبارك هذا الانزياح والارتياح معاً.

لم أرغب في زيارة متحف ديل لبرادو إلا بصحبة طاطا مارتين، حتى تتنشي بنشوة شروحاتها المستفيضة حول اللوحات: عن الفنان، المكان، والحدث الطريف الكامن في تعبيد الطريق نحوها.

تملأ عينيها فرحة بزاقة، تحدثني عن اللوحات السوداء لجويا في أيامه الأخيرة، أينما ولّيت وجهك ينقرك السواد، فأتوهم الفرغرة الأخيرة، وهو يقول: "إنه ما تبقى من حياة طويلة، لا تنطوي سوى على اللحظات الأخيرة من فقدان السمع". طاطا مارتين تجمع أساريرها، تلفها بعض الكرمشات جهة العينين، أدركتُ أنها تود أن تقول: "إنها غير مثفقة معه". أربتُ على كتفها حتى لا يدب ويتسرب إليها الفزع والجزع. تلتفت وتُقدم جيهتها إلى الأمام، كأنها تذكرت لوحة، لها عنفوانها الخاص ومجدها الهابش والنابش في صيرورة الخلود كما يموقعها العالم، ويرى فيها الحلّ الأنسب لإعادة ترميم خراب روحه، حينها تصبح اللوحات رسالات مكتنفة بأسرار تغيب حتى عن صاحب اللوحة نفسه، كلوحة ساترن يأكل أبناءه، المموقعة داخل المقياس البشع لتاريخ الفن، وسيدرك المرء أن جويا استعد للموت فنياً، وهو يلف جدران بيته بهذه اللوحات القماشية السوداء بشخوصها العشوهة والقاتمة. أوه، لو كانت مونيكا مكان طاطا، لأسهبت في تحليل اللوحات نفسياً، ستعزو ذلك إلى البنية النفسية غير المرئية منذ الطفولة، بيد أن الجواب في غاية البساطة، كما أخبرتني طاطا عن دوافع هذه النظرة التشاؤمية هي مرتبطة أساساً بغزو الجيش الفرنسي لإسبانيا، وفقدانه لحاسة السمع.

ندلف قاعة الجربكو، تلتفت طاطا بعد أن ركزت بعينيها على اللوحات الزيتية المجسدة للفعل الإنساني في ارتباطه بقلقه الأنتولوجي، لوحات عديدة للمسيح، يكشف بيديه وجسمه شبه انعاري عن فحوى الأخلاق، أو العذراء ساعة الكشف عن الحقيقة، تبدو متعبة ومسلوبة الإرادة حول

تحديد حقها للدفاع عن شرفها وشرف عائلتها. تقول طاطا:

ـــ هؤلاء الإسبان بغال بحق عندما ينسبون فناناً يونانياً إليهم، لا يكاد يتكلم بالإسبانية .. إنه كريتي الأصل، وإيطالي الهوى رغم تمرده على قوالب وقواعد عصر النهضة.

وقفت خاوي الركبتين، أود أن أقول لطاطا: قد تعبث، لم أستطع ذلك حتى لا أقتل رغبتها وسعادتها كطائر الفينس، وهو يغني أعذب الألحان على مشارف موته. تجذبني من يدي، نقف أمام لوحة خوصيه دي يبيرا، يظهر فيها النبي يعقوب مسنداً رأسه على بطن يده في نومة مشوبة بعظام كثيرة، خلفه شجرة، لا يبدو منها سوى فرع مقطوع عليه بعض العروش، نبتت حديثاً. جذع الشجرة مائل، لا يبرز منه سوى القريب من الأرض، ربما كان دي ريبيرا يرغب في إشراكنا في إكمال اللوحة من زاويتنا الخاصة. يتقشع نور من السماء صوب يعقوب، تحفه الملائكة كما هو الحال في سفر التكوين. أضع يدي على كتف طاطا هامساً:

ـــ أعتقد أنني أميل إلى لوحته الأخرى؛ الصبي ذو الرجل المشوهة خلقياً باللوفر، إنها تجسد أخطاء الطبيعة وعدم كمالها في حسن الصنع.

عينا طاطا تلمعان ككبش، ذبح للتو، كأنها ترمقني أول مرة، تُجيل النظر ملياً في وجهي كفن اكتشف سراً في غير وقته، أدركت أنني كنت أجاري طروحاتها عن علم، تفتر شفتاها عن شبح ابتسامة:

ـــ آه، معك حق، يا حصاني الأسمر. لوحة ولا أروع، ولا أحلى. أوف.. أوف، هذه اللوحة بالضبط تُوقظ الحواس الفنسية كلها، كنت أنظر إليها، وأتحسس رجلي مخافة أن يلحقها التشوه هي الأخرى.

كلامها يوصلنا إلى الباب بعد أن جذبت يدي كطفل في إشارة للخروج. قضينا ثلاث ساعات، نصول ونجول وانبين من هنا إلى هناك. أقول لها مشجعاً على المغادرة:

ـــ كيف نسانح أن يحيط بأزيد من ثلاثة آلاف لوحة، وأربعمائة منحوتة في لحظات، هذا عن ديل برادو، فماذا عن باقي المتاحف الأخرى القريبة؟ تحزك رأسها في إيماءة لتوكيد صحة كلامي، نقطع ساحة كورت، نجد أنفسنا في دي الصول، ندلف البار الأول في طريقنا. دماغي تواقة إلى شوب طاس لابازا، حتى يرتع الكافيين في خلاياي العصبية. طاطا مارثين تطلب كأس نبيذ لاريوخا. كان القدر قد تحالف مع الرغبات، فانقشعت

شمس، تحس بها مقرورة، لكنها فرصة لانسيابات متدفقة من أحاسيس جميلة، لا تترك لنا مجالاً للتفكير في القتل أو الانتقام أو الغدر، نحس أننا كلنا إخوة بشروط الفعل الإنساني الظاهرة على الملامح وعلى خزنة الحركة، يبدو أن الملائكة طارت من لوحة دي يبيرا، من لوحة حلم يعقوب، لتحقق أحلام البشر داخل اللوحة الكبرى التي تُسمى مدريد.

عينا كرينكا على التلفاز يرقب قناة السرك باستمرار، يُصدر أنيناً قريباً إلى العتاب والشكوى حالما فتح الباب، يقفز من السرير، يُبصبص بذيله لاطماً طاطا يرغب في الحليب كعادته، يسمع صخب اللعق في تتال جميل، تُخرج طاطا لسانها القرمزي في حركة اشتهاء، تُهيج بها هفتي لليل، سيطول، ونحن نستقبل السنة الجديدة بحب وشوق، حتى لا تبخل علينا أيامها المقيلة، وتنأى بنا إلى قسوتها، سنهادنها بكثرة الشراب والمضاجعة باسمها، وسننقر كؤوسنا وأشياءنا في صحتها مذعنين لأصفارها الأربعة، بابتهاج وصفير، حالما ينقشع النور.

أضواء الشموع تتراقص في الأرجاء كلها. طاطا مارتين تبدو كأميرة شرقية بعد أن تزينت بأزياء الشرق الخفيفة المهلهلة الزرقاء في مجاراة للصحاري المتشبعة بروحها الصافية، تلف رأسها ووجهها بعصابة سوداء، تُطالعني العينين الكحيلتين كالمها حين تُصدر منبهاتها للذكران بزواج وشيك. أضواء الشموع تعكس ظلّنا، تنبجس سيمفونية شهرزاد لريتسكي كورساكوف، مخترقة الروح. يجذبني ارتياح مبهم، يضمنه توهج حضارتي في سالف الدهر. كنتُ قد ارتديتُ كسوتي السوداء بقميصها الأبيض وربطة عنق الفراشة. طاطا مشدودة الرغبة للحظة تتويج تحزكها نزوعات الاختلاف والانبهار، تحاول قدر الإمكان تقليد نساء الشرق، بوضع الحلي الكثيرة على رقبتها وذراعيها، والمشي في مخاتلة موبوءة بمنبهات الأنوثة الحية التي تضمن انهمار السياقات، فتتحسس أعضاءك دون شعور، فيلتهم سمك لبك شص السياقات. طاطا لم ترغب في أداء دور شهرزاد، تعلم أنه استهلك بما فيه الكفاية، فتميل إلى الأخت الصامتة دنيا زاد، طالما أن شهرزاد انصهرت في مقامات سيمفونية كورساكوف. دنيا زاد ستبحث عن سيمفونيتها الخاصة داخل اللوحة الكبرى التي تسمى مدريد. كرينكا بخبرة غريزته يتظاهر بغلق عينيه، ويلتزم مكانه، يفتحهما مزة مزة مطلعاً على الأحداث. أسترق بعض النظرات من زجاج البلكونة، يبدو فارس الظل الحزين منساقاً لجاذبية الاحتفالات، فروحه تساير اللوحة الكبرى المعطرة بالتفاء الأصفار الأربعة.

عزيزي حمامو، أكتب لك من بلد الروائح المضمخة بعطر الإنكا، من لهيب التطلّع إلى غد أفضل، كما كان يرغب فيه شخصية البلد رقم واحد: بابلونيرودا. كنت أتمنى أن تُعاين بنفسك صورة الكمال والجمال، لكن شقوتك حرمتك من تلقي هذا الأثر. أقول شقوتك، لا داعي للتمحيص والحلّ كالعادة بتذكيرك بالأعراض النفسية المعتادة، وإعادة تقويم السلوكيات، الوقت لا يسمح بذلك. والدي والطبيب فركاس يزقوان كطفلين فرحين باكتشاف حمامة داخل قبعة ساحر، يبدو أنهما يعجنان عمرهما من جديد، لارتشاء شيخوخة مشروخة بالحك والسعال والروماتيزم والإحساس بالوحدة المقيتة بحكم الدنو من الردمة الأخيرة. لا يمكن أن أصوّر لك مكامن الجمال الطبيعي، كأن الله صنع العالم في ستة أيام وخص الشيلي باليوم السابع. لا أقصد أن الله ظالم، لكن، لأبين لك المعيار والتنويعات التي خصّت به الشيلي، رغم رعب الزلازل الخادش لجلال البهاء من حين لآخر. ثقة إيمان قوي يجسّد القناعات والخصوصيات، التي يفتقر إليها الإنسان الأوروبي؛ بساطة مقرونة باندراج عبر وهاد الحياة وأدغالها ومتعرجاتها، فالطبيعة الإنسانية جزء من الطبيعة، كل ما ترغب فيه النفس، ويشتهيه الذوق، يُقبل إليك في وداعة وبشاشة، تزدهيان بحُسن الاستقبال وحرارة الاحتكاك. سانتياغو الابنة الكبرى للشيلي، تلمع بعيون الخلود. فتاة رزانة، تطوّق عنقها بالصدفات البحرية، مكسوّة بألوان الزهو والمتمغنة في ماضيها بعيون الفصح والصفح معاً. مناحفها ترتبط بالذكرى أكثر من البروز والتمظهر، ترتبط بمخلّفات اللعين بينوتشيه الذي حكم البلد بيد من حديد ورعب. أقول لك: إن شقوتك فوّتت عليك الشيء الكثير، لا يمكن أن أحكي لك عن متحف Museo de la memoria y de los derechos humanos لايتوانى في تقديم حقيقة البلد إبّان حكم اللعين بينوتشيه. عينا والدي احميدة تنقشعان بدمع غزير، أعلم أنه تفاعل مع غرفته النفسية المملوءة بأحداث الجزائر في عشريتها السوداء. الطبيب فركاس يربت على كتفه في تأفف. يخرجان، ليشربا كأس قهوة، لتلطيف جو الغرفة النفسية. لم أستطع أن أبرح المكان حتى أشفي غليلي في تحليل الصور وآليات التعذيب المقزّزة

وقراءة التقارير التي أدخلت شعباً بأكمله في رحلات العذاب، امتدت من ١٩٧٣ إلى ١٩٩٩. يا لها من مسيرة لشعب صمود. البلدان الحقيقية هي التي تخرج منتصرة من وعثائها، منتصرة لقيمها، مشدودة لتاريخها وعدم تبريصه، كما سمعنا ذات برنامج إذاعي بفرانس أنتير. والذي اختار أن ينام باكراً لهول ما شاهده. الطبيب فركاس اكتسب شراسة في التعامل مع هذه المواقف. يومئ برأسه، لنشرب كأساً في الخارج، ونحتسي النشوة بدل الفم. نلج إلى بار في زقاق ضيق صغير مسلوب الإرادة لتبعات السواد الخلاق/المبدع، حناجر الجاز الصاخبة هي من تؤثث هذه البقعة، يقول لي الطبيب فركاس: إنه بار خاص بالبرازيليين. النادل اللطيف يؤشر علينا بالجلوس في مكان قرب النافذة، ويذكرنا أننا فوقنا على أنفسنا استعراض رقصة "الكابويرا" التعبيرية في الساحة المقابلة؛ كانت الفرصة سانحة، ليغوص الطبيب فركاس في شروحاته عن دوافع الرقصة؛ إنها لغة الجسد للتعبير عن معاناة العبيد عن تعاستهم، واقتراح حلول فجدية خارجة من الجسد المتمايل بحركات رشيقة، تدرك الكنه والجوهر للخلاص من ربقة العبودية. لا تصدق ما سيحدث في هذا البار الصغير، قدرة فركاس على الاحتكاك والحديث مع الكل، يناوش ويهبش وينبش حتى يدرك حقه من ارتياح شخوصه، ليمطرهم بوابل أحداث ثورته. يجلس بقربنا كهل بشعر طويل، شعرته تدل على أنه من جامايكا أو غويانا، سنكتشف أنه مغربي، ومن مدينتك بالضبط، لا تصدق أنه يعرف حمامو عز المعرفة، ويقول: إنك من أصدقاء دراسته، هل عرفته؟ يقول إنه يكتب القصص، قد غادر البلد بفعل أوضاعه المتردية، سافر إلى بقاع العالم كله، لكنه أكد أن الشيلي موطنه الأخير وقبره الأخير. لا يبالي أين يقضي يومه، فهو ينساق للجمال أينما حل. هل عرفته؟ أعلم أنك تعرفه جيداً. وقد أهداك قصة خاماً، كان على وشك الانتهاء منها، يبدو أن الطبيب فركاس نسي ثورته، وهو يستمع إلى صديقنا الكاتب يحكي عن شقوتك في الفصل وتعقبك لعورات الأستاذات، يخبط بيده على الطاولة متمايلاً بضحك صاخب، ويقول:

ـــ أوه، صديقي حمامو، إنه شيطان رجيم.

لا يمكن أن تُحيط بالشيلي في خمسة عشر يوماً، لهذا قررنا زيارة البنت الثانية للشيلي وحبيبة الشاعر بابلو نيرودا، مدينة أصيافه الحارة، أقصد مدينة التكامل، كما قال عنها السائق، مدينةvalaparaisoبمدينة المنعرجات المنقسمة إلى مدينتين في الأعلى والأسفل، والذي مشدود الرغبة إلى البحر أكثر، وفركاس يحوم بعينيه النافذتين للبحث عن طريدة

ساذجة، للتغني بزمن نورته الفنسي. إني أكتب إليك هذه الرسالة قبل زيارة شلالات إغواسو التي تقتسمها الشيلي والبرازيل. سأحكي لك حالما أعود، وأغرز نصال الحسرة في قلبك. على فكرة، الكل يحييك. ستجد قصة الكاتب ابن مدينتك؛ القصة الخام رفقة الرسالة.

موليكا التي تعشقك.

عزيزي حمامو، أهديك قصتي كبتلة من أزهار الذكريات.. أتمنى أن تحتفظ برونقك، أيها المشاغب الجميل...

انتظار

أصوات دافئة كأنها همسات الملائكة، شموع تتكوي خلف ستائر المحلات، وروائح الكعك بالقشدة البيضاء اللزجة تُغري العين والمعدة. هكذا تستعد العاصمة "سانتياغو" للاحتفال بأعياد الميلاد. الجدّ بيدرو يعدّ حقيبته بقضاء هذه الليلة في القرية الصغيرة التي تبعد عن العاصمة ببضع الكيلومترات. يخرج كعادته الصباحية، يتمشى بمحاذاة الشارع الخلفي للبيت، متفقداً العجوز فرغاس في غرفته الكارتونية. الكلب يواجهه بنباح شديد، لكن، سرعان ما سيحزك ذيله يميناً وشمالاً بعدما يتأكد من هوية الجدّ بيدرو :

"أين أنت، أيها المخرّف ؟"

يُحمحم فرغاس بصوته الواهن، إنه يعاني من نزلة برد ألمّت به من جزاء ترك نافذة غرفته الكارتونية مفتوحة، تستقبل التيار القادم من جبال الأنديز. كانت سيمفونية الفصول الأربعة تُحلحل المكان، يتذوقها الجدّ بيدرو كقطعة شوكلاتة، تذوب بين أسنانه، يتأفف، ويتأوه في الوقت نفسه، تلك التأوهات النقيلة، فتتماوج الأفكار في مخيلته كيعسوب يريد أن يُدرك حدائق الخلاص، يومها كان جندياً في الفيلق الرابع لمكافحة الشغب بتوصيات صارمة من بينوتشيه الذي يحكم الشيلي بقبضة من حديد. التلفزيون الرسمي يعلن عن حالة الطوارئ، كلمات معتوهة من سيادة الرئيس كافية لملء المستشفيات والمقابر. الجنرال الطريس بقسوته الجبارة يأمر أن يُمحق الجميع، بذرة العنف سقاها جحيم صحاري أتاكاما في الشمال، منذ كان طفلاً، يتنبأ له الكلّ بعمل مرعب، كانت هوايته قتل الكلاب الضالّة، ومطاردة القطط الشامرة، نشوة رهيبة تذكي بروحه كشعلة نار في كومة من الأشواك الصفراء التي تغطي الشمال. يخرج

فرغاس بعد أن انحنى على منسأته، وفي يده قارورة "نيجريتا"، يريد أن يحتفل بالعيد هو الآخر:

ـــ كيف حالك، أيها العجوز؟

ـــ بخير، ما أزال أترنص بباتريسيا، وهذا دليل كاف على قوتي.

ـــ إنك توهم نفسك، أيها الجد، بهذه الحيوية المفتعلة محاولاً إرشاء الموت بحركاتك المتشنجة التي تُريكها أم النقرس.

يتعالى الضحك بينهما، وهما يدبان كسلحفاة، تعقد عزمها على أن توهم الآخرين بسرعة واهية، يبلغان الحديقة العمومية التي تغطيها أشجار الأروكاريا وأزهار الريحان. ينشرح وجه فرغاس بعد أن يردف الكأس الرابعة مكشراً مذاق النبيذ بحبات الفستق:

"لا شراب بدون مزة".

هكذا يقول فرغاس كأنه يُغري الجد بيدرو الذي يمتنع عن الشرب حتى يبقى في كامل قوته، ليفي بوعده، لكن العدوى تبسط ذويها على إحساسه المرهف، فيعدل عن الفكرة، يتناول الكأس الأولى بنوع من الاشمئزاز، أما الثانية والثالثة، فستعرف السبيل إلى جوفه دون تكلّف. تجود عقيرته بالغناء :

نحن أبناء هذا العام

نمشي كأطفال بوداعة الحمام

الكعكة الجريحة تنزف عسلاً

نقضم أظافرنا

من شدة الغيظ

على فوات العام

وانقضاء الكعكة.

يصفق فرغاس بحرارة، كأنه يكتشف الصوت الملائكي للجد بيدرو. تُطفئ "سانتياغو" أضواءها في منتصف الليل، لاستقبال العام الجديد، أما الحفيدة، فما تزال تنتظر عودة جدها.

صديقك هشام الراسطا

الشيلي القضة التي لم تكتمل.

٢٨) احميدة السطيفي (الباب الأخير)

ثقة ذكرى من حب قديم بيني وبين المدينة الصغيرة الروحية Saint jean pied de port. لوعة محنطة، استدعتها أحاسيس غير قائمة على نظام الأشياء. لحظة تبني البعد حالما تستشعر عزلة الأقارب الرعناء. الأمكنة الحية لا تموت، بالرغم من الغبار الذي يتناثر على وجهها، يكفي أن تسفي الريح بعض هبوبها، فتسطع من جديد كشعاع شمس، يتبجس بين غيمتين موضحاً الأفق اللامتناهي، خاصة الأفق الروحي المنفلت من سطوة الذاكرة المثقوبة إلى الذاكرة الفطرية. كنتُ أصلّي صلاتي العادية، كمسلم في هذه الربوع المؤنسة على التحقي بالخلود، وتحصين الدواعي في الوقت نفسه، متعة رائقة تُلقي برداء التمثلات، ودغدغة المكامن بنشوة الإسراءات والمعارج إلى رحلة سماوية، لا تنتهي. الله اسم دالّ بحق على الأمكنة الفاتحة عناصرها للنسوغات، التي تقود إلى الإنسان المؤمن حقاً بالإنسان في حضور الاسم الدالّ والمكان الدالّ. الفذن المليئة بالعسكر لا يسكنها الله. القتل باسم الوطن من جهة، وباسم الله من جهة ثانية، فلا رب ولا وطن سوى البترول. الله لا يسكن الفذن المخضبة بالدماء والغدر. نحن نحتاج أحياناً إلى تحريك الرغبة المقلوبة لفهم المكان، نصبغه بأجواء نفسية، نُلبسها ثوب التكيف، فيتمذد نقر الأجراس، كأنه أذان، والحجيج المطوق بصدف التقوى إلى سانتياغو دي كومبوسطيلا هو حجيج مكة الملفوف بسماع النداء على بسط رمال الحجاز، فتتوالف جبال البيريني وصحراء الربع الخالي في توادد، كما يحتضن أخ أخاً، طال غيابه. ثقة إيعازات روحية تطرق باب الذاكرة الفطرية المرتّبة على أحسن ما يُرام، لها علاقة بالسماء مباشرة، ذاكرة قائمة بذاتها، ترشدك إلى مركز سعادة الجواب على السؤال القلق: أين الله؟ تشاكسها أحياناً الذاكرة الإنسانية المنتجة للأفكار، ملقية بإجابات جاهزة، في تبني منطق الأشياء، وهنا سترضخ إلى ذاكرة العقل/الجسد، وسيزداد الشرخ حتماً، ويموت نور الذاكرة الفطرية، أو يخبو. إنني لا أتعامل مع نظام الأشياء كما قلتُ لكم في البداية، أقيم حصناً للممكنات والنبوءات والكرامات في الوقت نفسه، أتطلّع إلى الله بنواة العشق والخوف والرجاء في كل الأمكنة والأزمنة، باعتقاد قلبيّ موصول بأنبوب من الذاكرة الفطرية، فتضخ لغة، نقتاد بها

في حمأة القيظ، وفي القر البغيض، والنهار الجلي والليل البهيم. المعذرة.. المعذرة، أعلم أن الجانب الذي يهفكم يميل إلى الذاكرة الإنسانية. الذاكرة الحميمية على الأخص، حميمية العواطف، والحديث عنها بصدق، لاستنارة فضولكم، خاصة ابنتي مونيكا الملحة في الطلب بعينيها المنقلتين من عيني الزائي إلى عيني الباحث الشغوف، فهي طبيبة نفسية، تستفز المشاعر، ويهمها أن تحيط بالسياقات والنتائج معاً، خاصة إذا كان أقرب الناس إليها. اذكرى نشاط حتى لتمجيد لحظات منفلتة من العمر. لحظات مفعمة بحيوية الرغبات والاندفاعات للكشف عن اشتباك الجسد والتحامه في الضفة الكبرى المرتوية بالماء الدافق بين الصلب والترائب، والمعجونة بنزوة الاختلاف. كان الكل يفضل باريس للإحاطة الكاملة بطبائع التمدن والإسراف في تبني أسس التحرر. الجنوب يرتبط بالبداوة والسذاجة ومواضعات التهريج، فيمور في أنفسنا فيروس مُدن الشمال حتى نُعطي لأنفسنا والمكان عظمته الغامضة. الباسك هذا الجنوب على ساحل المحيط الأطلسي خصوصية ملفوفة بالتراب والماء، لهذا فهو يميل إلى الميثولوجيا الساكنة في عمق التراب عكس الميثولوجيات الأخرى المتحلقة بالسماء... أحلام الحقل هي من تقرر التوجه، وترسم المنحنى. تركتُ الجزائر هائماً على وجهي في بقاع الأرض. اخترتُ أن أغرب، والدولة المستقلة حديثاً محشورة في حرب مع جارها المغرب. ذابت روح التوجه المشترك. باريس محطتي الأولى بعد حصولي على شهادة الباكلوريا. كان بإمكاني أن أعمل أستاذاً أو موظفاً في أحد القطاعات، وأغرس يدي في قفة الوطن، وأصيح: (يا خويا خطي راسي واضرب)، العزاء الوحيد المتبقي هو الرحيل إلى وجهات، تضمن الانزياح عن قفة الوطن. الباسك بالأحرى تشيشيلي بلد المناورات والإغراءات. الجسم المنطوي على أسرار عظيمة. تحس أنها لم تكتشف بعد. لم تدم المداهمات والمناورات المتبادلة طويلاً، حتى انسقنا لدبيب النشوة الخالدة بصهيلها العجيب، وخدش الأظافر الموشوم على ظهري من خز الدبيب الكهربائي. لم تكن الشخصية الوظيفية لتشيشيلي عائقاً أمامنا، وحاجزاً بيننا، بل انساقت إلى شخصيتها الأساسية. سلك المحاماة علّمها الاستماع بحدس مرهف إلى طبيعة تبني اللغة كجهاز رصد، محيطة بكل كبيرة وصغيرة، كأنها تعد ملفاً للمرافعة. كلمات الرفث ملف قائم بذاته، كنتُ أعبر بما أملك، وأنا أعانق النقطة الفطرية المبهمة، اخذة مني جسدي وكياني للحظات، فأحس أنني أغرس علم الوجود في هذه البقعة اللائقة، عازفاً نشيد النصر. تستفيق معه النعاعات ورغبات التحرر من ربقة الاختلاف وتصورات الجنوب. تشيشيلي تُسدل شعرها كقرص

جموح، تطاوع فارسها المزدهي ببلوغ قفة البقعة، والغزق يتصبب منها عبر فقرات العمود الفقري إلى الأسفل، فيحتدم الملف، هذه المزة من وسطه، وتطول المرافعة حتى الرمق الأخير من الليل. المنبهات لغة حقيقية للذاكرة الإنسانية، تموضع المقاسات في الاتجاه السليم لظزق باب الاستجابات، محققة التوازن المألوف، فتخمد الأنفاس الحازة إلى أنفاس دافئة حتى الصباح مستطيبة كنه حلوة لذيذة، لم يفضل منها سوى انتعاش المذاق، أو الرائحة المجلوة بوفرة المقادير المتجانسة. لا أعتقد أن عنصر الاكتشاف والإرادة الحزة سيرغبان في اجترار العذوبة نفسها بالقالب نفسه، حينها سنستشعر بالفتور يدب إلينا، هذا الفتور المنتمي إلى بذرة تمزد داخلي، يدعو حتماً إلى التفزغ لوجودنا الشخصي، وعزلة حلمنا بعوالمه، فتتسع الهوة ملتمسة إيجاد الجواب الكافي، وتزداد المكتسبات بالثقة في النفس بالابتعاد رويداً رويداً، وقفل العادات المشروطة، مستشعرين فرحة نفسية باتخاذ قرار مشترك حسني، نعوضه بالبحث عن طريق آخر، نسعى إلى اكتشافات متعددة، نحيط فيها بعلاقات متشابهة سرعان ما نصاب بخيبة أمل، ونركن حينها إلى عزلة، قد تطول لسنين عدة في انتظار ذلك الذي يجيء، وغالباً ما سنعود إلى العلاقات الأولى التي كنا نسفيها علاقات ساذجة، نتوسم فيها اللحظات السعيدة بنوستالجية، تملأ نداءات الفراغات الداخلية، متوهمين أننا نستطيع أن نلبي حاجات الاستجابات، والانتشاء بقارب النجاة والمناجاة والملاطفات، لتتقم ما تبقى من الرحلة باسم الحب، أو نحس بالخديعة إلى الحد الذي نشعر فيه بعدم القدرة على المضي إلى خطوة أخرى، ونترك الموضوع مفتوحاً، طالما أننا لم نعلم من هو المسؤول الأول عن هذه اللوعة المبهمة. لهذا اخترث الحب الأزلي الفطهو على نار الحب الأعلى في طقوس، تنعرج بك إلى الخمرة الأزلية، حيث الدبيب يزيح العتمة، ويحيل حب الدنيا إلى رماد بارد...

٢٩) جادة سان سيباستيان

شمس ربيع متلكئة تخرج من أحشاء جيب شتاء طويل، كجندي لم يرغب في انتهاء عقدته، دائباً على الحضور بفعل العادة فحسب، يشذه دوي القنابل وأزيز محركات الطائرات والدبابات وصرخات الأوامر. طاطا مارثين تقود سيارتها على الطريق الساحلي من بايون صوب سان سيباستيان. تطلب مني أن نشرب كأساً على جادة الساحل في صحة هذه الشمس النسبية الباعثة على انبهار خفي. قبلات محمومة، وألسنة مغروسة في الأعماق. الشمس لغة العبادة الحقيقية، نشرب في صحة الحواس المتوقدة والمتيقظة. الاستعارة المشفة لهذا القرص المتخاذل. الجادة تنقل الإسبان شعب الصراخ والصخب واللغة الرنانة بهلستها الفاتنة. الموجات تصل متكسرة إلى الساحل في مدّ لطيف، يُعلن عن فسح المجال لجزر كاشف عن الخبايا والخفايا. تمرّر طاطا مارثين يدها على فخذي في حنان كعادتها، تُهيئني لسماع خبر سار. هكذا نرصد الصور من بار فندق لندن. الفندق المنسجم مع قناعات طاطا مارثين البرجوازية. انفعالات أخفيها دائماً من ثقل الأمكنة التي لا تتماشى مع موروثاتي اللعينة، فتستيقظ منبهاتها في هذه الأمكنة، إنها العودة إلى خزينة الإخفاق المبطن بآلام نفسية عميقة، تُعاودني رغبة التبول باستمرار، المربكة لنزوعاتي البيولوجية. تردف طاطا مارثين:

ــ هذه بطاقتك البنكية، فتحت لك حساباً بنكياً، يجنبك مشقة السفر يا حصاني الأسمر.

تجذبني ابتسامة رقيقة كجواب منسجم مع طبيعة اللحظة، حينها يسافر ذهني إلى المبلغ، كان بوسعي أن أقدّم استقالتي من تدريس اللغة العربية في الجمعية، لكن ثمة شيء يمنعني. الأطفال تحتضن وضعهم اللغوي بما فيه الكفاية، واستمالت أرواحهم اللطيفة إلى معانقة لغة تبدو ترفيهية أكثر: علّموا أبناءكم، وهم يلعبون كما تقول العرب. برنامج خاص منطو على الروح المرحة للطفل، وهو يشارك في تكريس بنية الفعل اللغوي أكثر من الانقياد لحمولة لغوية مكبلة بنظام صارم كثكنة عسكرية.

تفيض عينا طاطا بعطف بزاق، لا يمكن أن تستوعبه إلا إذا مالت عيناك أنت الآخر في وداعة، محركاً رأسك، ضاماً بشفتيك، على أساس أنك ستنهمك في الحديث عن أخلاقيات الحب بصوت هامس، وتُعالج موقف طاطا ورغبتها في الزواج. تحتاج إلى زوربا اللعين الذي يجذف على كل شيء، ولا تطارده لعنة العقاب، بل هو من يتقفى أثرها. النادل يُزعزع لحظة السطو، بوضعه مزة سمك في انحناءة، يؤكد أن مدير الفندق هو من أمر بتقديمها للسيدة مارثين، ويقول: من الأسماك التي يشرف على تربيتها بنفسه في غاليسيا.

تومئ طاطا بحركة من رأسها هامسة:

ــ كراسياس.

طاطا تعشق البعد عن بايون وبياريتز، حتى نكون أكثر دقة في ترتيب أنفسنا، والنأي عن الأمكنة الملاحقة بالشخوص والعادات نفسها. الأوضاع الاستثنائية هي من تجعل لحياة طاطا مغزى بحكم الانزياح عن ترتيبات البرجوازية المكلفة والمملة أحياناً. الوضع الاستثنائي يمنحها الانفلات من براثين الحياة الخاوية رغم النعيم، يمنحها دقة التمرد بعيداً عن الالتزامات، والخادمة ماتيلدا المسرفة في تبني هذا البرنامج كالروبوهات المنطقية الساذجة، لا تقبل التنويعات وفق المزاج واللحظة. أحرص في القبض على اللحظة المجدية، لحظة الاندفاع صوب سعادة هائلة بعيدة كل البعد عن رؤيتها اليومية وانفعالاتها المسلطة على المادة. أحكي لها عن طبيعة العلاقات في بلدتي، عن الشيطانات التي لا تنضب بين الشخوص، الحيوان، الجان، الشجر، والحجر، تتوالى الصور الخابية الحشية، وتصبح هي من تجعل لحياتنا معنى، ونفتح المتاهات كلها، وتكتسها وفق الرؤية البسيطة البعيدة عن آخر موديلات السيارات، الطائرات، الأقمشة، الربح، الخسارات، الأسواق، والصفقات.

في غمرة السبحان النفسي والنشوة الملفوفة بحنين، يجري معه الدم في خدر لذيذ، نتفق على أن نقضي الليل هنا في سان سيباستيان، "سويت" طاطا مارثين دائماً جاهزة وتحت طلبها، كقصر مختزل إلى الحد الذي يسمح به مجاراة الفكرة الأكبر. لوحات زيتية وأيقونات تعصف بوجه التاريخ والدين، من خلال رموز، تختلف مصداقيتها بين مؤيد ومعارض. الإنارة حسب الذوق وذروة اللحظة. الإنارة الخافتة لاستجلاء الرغبة الطافحة الرابضة في حفر الهوس والجموح، والإنارة الكاشفة لتبني

الحقائق والقدرة على التمحيص بعيداً عن وهم التخيل. سرير ناعم بأفرشة ذهبية اللون، تزركشها صور الملائكة السابحة في الملكوت، فرحة مستبشرة بقيامها بمهامها النورانية. المنضدتان تغطيهما مناديل من الحرير السكسوني المنتهي بأهداب على الحواف، تزيّنها باقة من الورد وسفاعة الخدمة، تطالعك صور لندن في العصر الفيكتوري: عقارب ساعة البيغبين ونهر التايمز المؤنس والمتناغم مع عشق الإنجليز للحياة المختلفة، المدبّجة بتيسير اليسار المكرّس لوجهة التباين مع الآخر. أفتح النافذة، الأشعة تهجم وتغمر قلب "السويت"، يبدو البحر كهبة يباركها le christ du sacré cœur de la mota بتمثاله الرابض على أعلى ربوة Monte urgull فوق الميناء راقباً كل كبيرة وصغيرة، فهو عين الحرص التي لا تنام. البحر يتراجع في هذه تاركاً الصخرة التي على شكل جزيرة عارية كفتاة ترغب في التسلي بمفاتنها دون تحديد نية الاختيار، مستأنسة بصياح الأطفال من ربوة Parc d'attractios monte Igeldo، فيرتد الصدى عبر الفوهة عندما يزجّ بهم قطار الأربعينيات في متاهات الفيلان الرهيب، كأنهم سيسقطون في البحر. السائق يُسرف في تدويره بالمحرّك اليدوي، منتشياً بعمله متماوجاً في سعادة طفولية بديعة. تُطوقني طاطا بذراعيها، مائلة بوجهها على كتفي وأنفاسها الحارّة، تداعب شحمة أذني، يسرح العطر الباريسي في أوصالي كلها، ندخل معاً إلى الحمام الساخن الجاكوزي المنقوع بأعشاب، تتسرّب إلى المفاصل بدبيب الحرارة الموغلة المبثوثة الصلة بتلك الاستردادات الجسدية، فتنكشف الغلالة، كأننا في عالم من عوالم الجان، تتدحرج أحداث محمومة غير ذات قيمة في هذا الزمان والمكان غير الموجدين أصلاً في لبّ الصهد المبهم. طاطا تفتح عينيها قدر الإمكان من شدة الغرابة والانشداه، أحكي لها عن رسالة والدتي الأخيرة؛ نشوانة بتحقيق حلمها بهيش بئر قرب البيت، وكيف أقنعتني بتحقيق رغبة والدي في فك طوق العذاب عنه في قبره، مؤكّدة في رسالتها الأخيرة: "هههه، إنه الآن يبدو مستبشراً، تجري من تحته الأنهار.. فقد عاودني الحلم؛ والدك يطش الماء عليه، ويعبث بالقطرات في السماء من شدة الفرح كطفل شقي يفك لغزاً أول مرة، وحتى تُكمل خيرك ولدي العزيز، ترغب في استرجاع أرضه التي بيعت أيام الجفاف، ليحفل بالرضى النهائي، ونكون قد قدمنا لنا وله خدمة كبرى، وألهينا عقدة اللوم التي لا تجعلنا نرفع رؤوسنا في القبيلة، كما ينبغي. لا تنس أن تفكر ملياً في الأمر أنه مهم لنا جميعاً..".

تهدهد صدر طاطا بالضحك لافّة بيدها في حركة، تجسد خطورة تفكير

والدتي. أومن برأسي كذلك:

ـــ امرأة ذكية للغاية، وتملك وسائل الإقناع الغيبية التي تسافر بك إلى السماء، وتعيدك إلى جوف التراب. كم أحب هذه المرأة، أتمنى أن أحفل بلقائها ذات يوم.

هكذا أردفت طاطا، ونحن نلف أنفسنا برداء الحفام، ونغادر إلى الغرفة، لننعم بالبحث عن الانغمار وسط صهيل النشوة الأبدية.

٣٠) الروح الضائعة

لم يستوعب عقل الشيخ فركاس طابروس الاعتدال في مواقفه رغم مرور السنين وتغيير خريطة العالم السياسية، ما يزال يساند خطف الطائرات، ويسعد للعمليات المفخخة بتشفٍ مدقع، نشوة لا يمكن وصفها حين تنتعش بذرة ثورته الفنسية، مسترسلاً بفضفضاته ومقارناته، فيعيد ترتيب العالم وفق منظوره المستقبلي. يفرد يده في حركة بين الصعود والهبوط تنم عن الميزان، يقول بابتسامة خبيثة:

ـــ من يستحم في المستنقع لا يستطيع التخلّص من الأوساخ أبداً.

يُمسك الكأس محرّكاً بإبهامه، يروح ويغدو في حركة الشيخوخة المثيرة للشفقة، يداري على ما تبقّى من قدرته على الحركات البائسة بقفز كعصفور صغير، يتمرّن على الحصّة الأولى من الطيران، لاعناً اللقيطة التافهة المسفاة الولايات المتحدة الأمريكية. اتّضح ذلك ملياً من خلال أحداث ١١ سبتمبر. ما أزال أذكر صوته النشوان وسعادته البالغة، راسماً قضيباً ذكرياً على الورقة، ويشرع في تمزيقه إرباً إرباً، متحدثاً في الوقت نفسه كأستاذ نجح في إقناع طلّابه بفشل حي:

ـــ ضاعت فحولة الرجل الأمريكي المخنث بسقوط رمز ذكورته على العالم، المجد للجيش الأحمر، أو كوبا.

كان ذلك عشية الضربة، لم يتّضح متبني العملية، وبعدها سار يعشق زعيم القاعدة أسامة بن لادن، مثنياً على أوصافه، ومحللاً صورته بدءاً من العينين بنظراتهما الباردة إلى الوجه الطولي المنحوت من رمال شبه الجزيرة العربية، المكسو بزغب الرجولة المحبوب لدى العرب. يبصق على وجه جورج بوش في التلفزة دون أن يُصدر لعاباً متماهياً مع تلك الذهنية الإغرائية المكيفة مع الأحداث الفرعية، التي لها صلة بالحدث الرئيس، فتنط إلى فمه قولة مادلين أولبرايت، مقلّداً مشيتها ورؤيتها اليومية:

"نحن نملك أطول قامة في العالم، الأمر الذي يسهل علينا رؤية العالم عن كثب".

نحني برؤوسنا مؤكدين صحة كلماته، يترك ذلك انطباعاً جيداً في

نفسه، يخرج وراء الباب الزجاجي، يشفط الدخان من مبسمه العاجي، مراقباً رذة فعلنا، محللاً حركاتنا. كنا نكثر من الإيماءات حتى لا نعكر صفوه، ونقتل الشاب التوري الكامن في أحشائه.

استيقظنا على أحداث قطارات مدريد. الشيخ فركاس يلح على أن نتناول الفطور معاً. تغمزني مونيكا غمزة الدراية والاستعداد لخطاب سيطول عن المجد والشرف وتاريخ العلاقات الدولية، لكن، في الحقيقة ليس فركاس وحده من سعد بهذه الضربة. الباسك والجيران كذلك. رئيس الوزراء خوصي ماريا أثنار بمسوطاته كبائع السجائر بالتفسيط، أو جرو أمريكا، يبصبص يميناً وشمالاً، كان قد خسر الطريق إلى رئاسة حكومة ثانية. الضربة في موعدها، خطط لها بعناية فوق الوصف، كعادة كل ضربة، تشير أصابع الاتهام إلى حركة إيتا، والبعض يرشح كفة مخابرات الدول الجارة المغلقة. نجده في بار صغير بالميناء، يحتسي بيرته في اطمئنان، كمن سمع بنعي عدوه، فيقول:

ـــ أعلم أن الكراء يسيل على جوانب البدوي الأجلف خوصي مريا، يهأهن بضحكة ثعلبية، نهأهن تبعاً له، يُرغمنا على الاحتفال بهذا النصر، بقرع طاسات قهوتنا مع كأس بيرته، ويقول بصوت قريب إلى الهمس:

ـــ في صحة الثورة التي نستفيق من حين لآخر.

لم نعلم كيف نتخلّص من هذا الإصرار البغيض، تهمس مونيكا في أذني:

ـــ سنخصص هذا اليوم لفركاس، إنه يومه بدون منازع.

عزمنا كعادته إلى الغداء في مطعمه الباسكي المفضل Ostatua في قلب سان سيباستيان، حيث يعود مدخوله إلى سجناء حركة إيتا. صور المعتقلين تغطي الجانب الأمامي من الكونتوار، مختومة بعدد سنين العقوبة التي سيقضونها. الحائط منمق بالشعارات الباسكية اللاهبة نكاية في الحكومة الإسبانية، والإعلانات لأنشطة تدعم اللغة الباسكية كمادة للدراسة. نأكل في صحة القضايا التورية، وفي صحة روح الشيخ فركاس الفسفية بجحيم حركة مير الباندة، مبرزاً عقد الاستكمال، فيسهب في إعادة ما قاله في حلّة ثانية، يضيف حذقاً، ويزيل الاخر، لكن التصور العام يبقى نفسه، ومقطباً بين حاجبيه، ليتسرب إلينا اليقين المستفز. كنتُ دائماً أقف مع الشيخ فركاس عند الفهم الحقيقي للروح الضائعة لمالكوم لوري حين يُدرك العمق الخفي وسط عتمة الذكريات: "ما الروح الضائعة؟ إنها

تلك التي تحيد عن طريقها الصحيح، وتظل تتلفس وجهتها في عتمة دروب الذكريات".

أنظر إلى الشيخ فركاس بعين العطف، لأننا في الحقيقة كلنا أرواح ضائعة، نهيم بأرواحنا الضائعة صوب صخب بحر سان سيباستيان، هوالآخر يحكي عن روحه الضائعة، بصورته العامة، بنوارسها الهائمة، بنشيدها الزاعق وفذه وجزره، كنوبة حراسة أمام مكتب زعيم جبار. كانت الشمس تنحدر مائلة بقرصها الأحمر في انسجام مع ذاتها. الشمس هي العذراء الوحيدة منذ الأزل، تُذكّرنا كل غروب بذلك، الوحيدة التي حفظت روحها من الضياع، لم تدع أحداً يلمسها. إذن ما جدوى التعلّق بالذكريات التي فقدت عذريتها؟

٣١) رسالة من بيشاور

باسم الله الرحمان الرحيم، والصلاة على نبيه المصطفى. أما بعد: أخي حمامو. إني أرى تقلبك في الأرض، ولتولينك منهاجاً وشرعة، لتنجيك في دارات الدنيا والآخرة من الضيم والعذاب، ولتجلبك ذاك الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون. أعلم أنك تفرد وقتك كله للمتع والفتن، ما ظهر منها، وما بطن، لكن، أرى في قلبك بذرة الإيمان التي لم تمت. ألا إن القلب يصدأ، كما يصدأ الحديد، والإيمان وحده الكفيل بأن يبرز الطريق القويم بصقله حتى يرتد إليك صفاؤك. كنت أحس بك في زيارتك الأخيرة، تبحث عن محفد حسوني الآخر، أو بالأحرى حسوني السبعينيات. حسوني الطروحات الفلسفية وزيف التحرر، تلك كذبة كبرى، لم نجن منها سوى التيه. لا أجمل من الفلسفة الربوبية المنظمة لكل الدوافع والنزوعات والميلانات. لا أخفيك سراً، الآن أدركت حلاوة الحياة والابتعاد عن الشروخات الذاتية. لا يمكن أن تتصور مخلفات جحيم الفقد والاغتراب وسط عوالم الجاهلية، كما أسقي هذه المرحلة، كنت منحازاً لإملاءات إبليس اللعين، تغمرني ضحكة بائسة حين أعود بنفسي متذكرا مواقفي من الله السبعينية، حين انسقنا للمادة والاشتراكية البلهاء، نمجد بغلاً يُدعى جوزيف ستالين، ونُقيم حفلاً صغيراً كل أكتوبر، نغني بكل الأناشيد العمالية التي كنا نحفظها عن ظهر قلب، ونؤمن أن الثورة على الأبواب. لا أعتقد أنك ستدرك أن وجود الأمير ضرورة ملحة، حتى يتم لم شمل الجماعة، فقد أنعم الله علي، وبايعت من أرضى دينه وخُلقه، حتى لا أموت ميتة جاهلية، فأمير أو سلطان جائر لألف سنة خير من أن تُطلق الأمور في يد الرعية. إن حال المسلمين اليوم يدعو إلى الشفقة أمام الطواغيت، فوالله الذي نفسي بيده، مادام اليهود على وجه البسيطة لن يعرف العالم السلم قط. أنا شخصياً لا أفرق بين اليهود والأمريكان، وهذا موضوع آخر. أعلم أنك تنفر من الرسائل الدينية، حاولت قدر الإمكان أن أزعزع خزينتي وذاكرتي مجتنباً الكلمات التي يمكن أن تسحبك إلينا، وتأنس بالخلاص الذي حدثتك عنه ذات لقاء. لا يمكن أن أصور لك حسن خُلق أهل بيشاور وخفة روحهم وتدينهم. يعدوننا عرباً خُلصاً، أبناء صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يمكن أن تصدق أنهم يطلبون منك أن تبصق في الخبز، ويأكلونه.

فعلّلين ذلك ببركته. ستضحك كعادتك، وتخبط بطنك كرزة فعل، ستزيد من حدة الخبط، هههههه، وأنا أخبرك أن واحداً من أبناء منطقتك قيادي بارز إلى جانب الملا عمر في أفغانستان. قلتُ لك منذ البداية: إني أعلم تقلّبك في الأرض، لهذا أبعث لك برسالتي هذه حتى أجنبك مشقّة السفر في الدارين، هنا النقطة المضيئة التي كنتَ تبحث عنها باستمرار، فهي توجد في الخلاص، الخلاص في البلدان الطاهرة، التي لا تزال على سجيتها. إذا كانت لك رغبة في أن ترقب الوضع عن كثب، سأتصرّف في رحلتك انطلاقاً من مطار برمنغهام بلندن، ثقة أصدقاء سيتكلّفون بكل شيء، أنا على يقين، ستسعد كثيراً باكتشاف حلاوة الإيمان وعفوية الإنسان، وحتى يلين قلبك لصحبتنا، إن شاء الله العظيم، وتكون في محفّ الملائكة، أبلغك سلامي وتحياتي، وسبحانك اللهم، بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك.

ستجد كل معلوماتي في الأسفل.

أخوك في الله الشيخ محمد حسّوني من بيشاور. والله المستعان.

ما أسعد الإنسان حين يترع الكؤوس، ويشحذ الخيال قرب نهر لادور. شمس الغروب تنمايل ملقية تحية المساء، بشفاه حمراء، تفرز دفئاً سعيداً في القلب المدوزن بنشيد النوارس الصادحة، الماثلة على صفحات الماء، كما تفاحب امرأة رجلاً منذوراً للرحيل طول حياته. يغيب الشفق الأحمر نهائياً، وتمسح أضواء الإنسان بايون بتلك المصابيح العاكسة لكل شيء، يمتد ظلّي أمامي وخلفي تبعاً لحركاتي الطنانة. لا أحد يُدرك قلق الخزيّة إلا في الأماكن العارية على العالم. أشرب في لحظة انبجاس الليل من أسره، في لحظة العزلة المقدسة كراهب قد صام حيداً من الدهر، أفتح غرف ذاتي كلها، بدون استثناء، الضوء المنعكس على الماء يتماهى مع هذا الفتح المبين، يخلق إشعاعاً، يمتد إلى الإحساس الساكن بالأعماق، يعبر الغضب الحزكي، مقبلاً على رجفة، ستقذفني إلى السماء السابعة، لا لغة تجاريها، ولا تعبيراً يضاهيها. رجفة عفوية، نبعت بغتة كتلك الأعاصير الصغيرة أوقات الظهيرة في الصحاري، محدثة أشكالاً ونموذجات جديدة للرمال. رجفة تجمع بين الضحك والبكاء. الدموع ليست مالحة كدموع الحسرة والخيبة. دموع يمكن أن تغسل الخطايا منذ الأزل. دموع لتصوُّر لم يحدث بعد، أستشعر أنني أكتشف نفسي أول مرة. شخص ملفوف بأسرار شتى وسفريات مبهمة، يرتج معها محزك الاستبطانات. سفريات مخالفة بعيدة عن الارتباط بالشخوص والقيم والالتزامات العربية. اجتناء لحظة الأمل التي كنتُ أسعى إليها منذ طفولتي عبر استيهامات متداخلة، يطبعها هذا الذي يسقي الجوهر الإنساني، أو المشروع الإنساني.

هبتْ نسمة رطبة، عبرت مسامي، بادرتني نوبة من العطاس المنسجم مع مفهوم الخزيّة، أو المشروع، كنّفتني جمع خياشمي وجسمي دفعة واحدة، كفن سيحمل خيشة من الذرة. القمر يرخي خيوطه الأولى، خيوط الولادة زاحفاً إلى قلب السماء بتنورة كاشفة واصفة، منسجماً مع الرجفة التي تتأبطني. كل الكون الصغير القريب من يدي رثّب نفسه لديكتاتورية هذه اللحظة رغم الاحتفالات بأسبوع الآلام. غريب أمر المسيحيين: يدّعون أن المسيح قُتل مصلوباً، ويلحون في طلب مغفرته! كم يلزمنا من أسابيع

للآلام، لنتذكر الجميع، ولنتذكر الخذلان؟! القارورة الأولى الفارغة تُحدث رنّة جميلة بعد ارتطامها بالماء. قُتل المسيح، ليتحقل أوزار المسيحيين، قُتل في عز شبابه، متذوقاً تلك اللحظة التي يقول عنها الشاعر ريلكه: "المكافأة الكبرى لمغامرة الشباب".

أحببتُ المسيح في هذه اللحظة، وبعثت بتحيتي داخل كأسي، الأنفس الكبيرة تُحيي بعضها عن بُعد. كنتُ أودّ أن أصرخ صرخة الذكرى، وأحتفل بآلامنا معاً، عدلتُ عن الموقف، بإشعال سيجارة، وملء فمي ببعض المزّات عوض الصراخ. لا يمكن أن نعبر عن آلامنا بالصراخ، سنعبر عنه بتحية بعضنا البعض داخل الكأس السعيد، كدتُ أفقد عذوبة الرجفة، فانسقتُ للدبيب في ارتشاف ممهور، وأخذتُ عهداً على نفسي ألا أتذكر حديث الوجوه المائلة ومواضعاتها، وأنسى وضعيتي كالقط الهادئ الذي يتناوب على حمله كل أفراد العائلة، وكلٌّ يخال أن القط ملكه، فينساب القط مع حذة اللمس، مع حذة الطروحات الجاهزة. سأنسى مشروع طبيبتي مونيكا النفسي بغظلته المنهزمة، والتشبث بهرمون السعادة، وسيحدّ الحصان الأسمر من غذوه في فرج طاطا مارثين المتصلّب والمتصرم، وأدوس على الثورات الفنسية للشيخ فركاس طابروس. الآن تندلع ثورتي الخاصة وسط روحي المتمزدة. لا خير، ولا شر، ولا حياة، ولا موت، إيماني الخاص بالفعل الإنساني العفوي الذي نستمد منه وجودنا، ترياق الديمومة، حتى نتمفصل ونتنصل من ثقل الدوّامة القسرية، وحتى لا تنطبق علينا حكاية أحدهم عن الحمار الهادئ الجميل الذي عاصر الديناصور، فارتأت الطبيعة أن تمحق كل الموجودات، بسب طاغوت الديناصور على وجه البسيطة، أرضاً، جواً، فظلّ الحمار منصتاً لعظامه، ففكّرت الطبيعة أن تمنح الحمار وسام العمارة، من يومها، اتّسعت الشراكات والصداقات، وعمرت الأرض كما يحبّ القانون الأسمى الخاص بالحمير الهادئة الجميلة، وانساق الجميع للإذعان المرسوم، ليتجنب غضب الآخر. أرمي بهاتفي في الماء. أحسّ غوصه في نفسي، فتغرق الأسماء من الألف للياء، خاصة حرف الميم المذقع. لم أعد أرغب في أي شيء سوى التخلّص من العذابات النفسية التي كابدتُها، ولملمة حمم ذاتي الملتهبة المنثورة على الجسد العائم في هذياناته وخترفاته. كلمات الخزنة الحامية الوطيس، المعجّلة بحروب فتوحات جسدية جديدة بعيداً عن انسياق الأيتام إلى مأدبة اللئام. مأدبة أقيمها بنفسي، لا تطلب ودّ وصفات الطبخ القديمة، وصفات بتوابل، تكرّس الافتتان والتماهي حدّ الصيحة الأخيرة، مستمداً حياتي الجديدة مما قرأته عن كريشنامورتي:

"لا اسم لي

أنا مثل نسيم الجبال العليل

لا ملجأ لي

أنا مثل المياه المتدفقة

لا كُتب مقدسة لي

ولا أنتسب إلى أي إرث

لستُ في البخور المتصاعد من المذابح، ولا في أناشيد الطقوس

لستُ محاصراً بالنظريات، ولامفتوناً بالمعتقدات

ولا موثوقاً بسلاسل الأديان

ولا بالاحتضار الورع لكهنتها

لستُ لا في الأعلى، ولا في الأسفل

أنا العاشق إذا عشقتُ

أنا خُز

وأغنيتي هي أغنية النهر المتدفق على هواه

منادياً المحيطات المفتوحة

"أنا الحياة!".

أصوات الهاتف لا تزال تدعك أذني بفرغرتها الأخيرة، تطلب النجدة. الليل يطوح بسفرائه السود إلى وجهة أخرى من العالم. النوارس بكرث ينشيدها الصباحي الرسمي ففردة أجنحتها بميلانها المعتاد على صفحات الماء، وتسلم النهار الجلي الكاشف المشعل من الليل المتعب، فتلوح خيوط التباشير الأولى، تغسل أجفان بايون.

القارورات تطفو على مويجات نهر لادور في هذيان شاعري جميل، متخلّصة إلى الأبد من حديث الوجوه العائلة.

هشام ناجح / المغرب. إسبانيا ـ فرنسا.